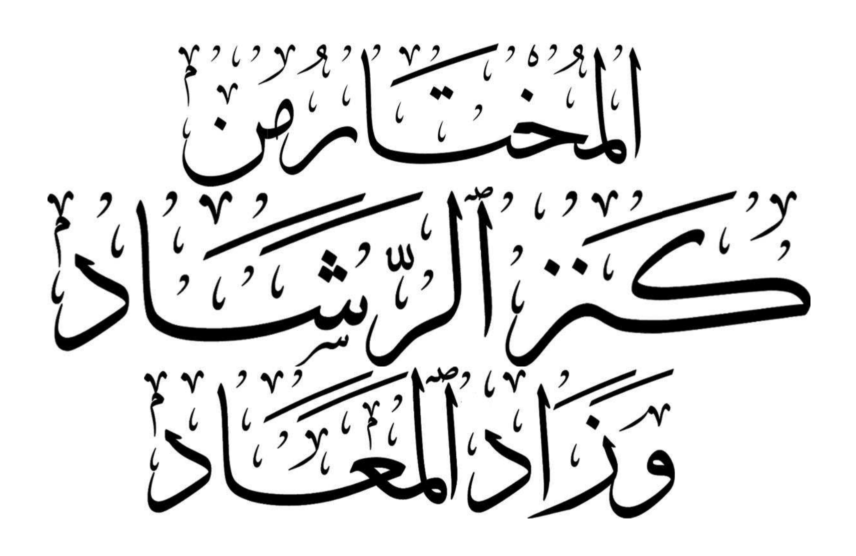


مؤلف كتاب كنز الرشاد

الإمام المؤتمن مجدد دين الله في أرض اليمن الهادي أبي الحسن

عزالدين بن الحسن عليه السلام

(ت ٩٠٠هـ)



صف وتحقيق وإخراج:



اليمن ـ صعدة ـ ت (٥٣١٥٨٠)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة مكتبة أهل البيت (ع)

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين.

وبعد:

فاستجابة لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال:٢٤]، ولقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، [آل عمران:١٠٤]، ولقوله تعالى:﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ [الشورى:٢٣]، ولقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب:٣٣]، ولقوله تعالى: ﴿إنما وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ [المائدة:٥٥].

ولقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:((إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا من بعدي أبداً كتاب اللّه وعترتي أهل بيتي، إن اللطيف الخبير نبأني أنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض))، ولقوله صلى الله عليه وآله وسلم: ((أهل بيتي فيكم كسفينة نوح، من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق وهوى))، ولقوله صلى الله عليه وآله وسلم: ((أهل بيتي

أمان لأهل الأرض كما أن النجوم أمان لأهل السماء))، ولقوله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: ((من سرّه أن يحيا حياتي؛ ويموت مماتي؛ ويسكن جنة عدن التي وعدني ربي؛ فليتول علياً وذريته من بعدي؛ وليتولّ وليه؛ وليقتد بأهل بيتي؛ فإنهم عترتي؛ خُلقوا من طينتي؛ ورُزقوا فهمي وعلمي)) الخبر، وقد بيّن صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بأنهم: علي، وفاطمة، والحسن والحسين وذريّتهما عَلَيْهِمُ السَّلَامُ- عندما جلّلهم صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بكساءٍ وقال: ((اللّهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً)).

استجابةً لذلك كلّه كان تأسيس مكتبة أهل البيت(ع).

ففي هذه المرحلة الحرجة من التاريخ؛ التي يتلقّى فيها مذهب أهل البيت(ع) مُمثلاً في الزيدية، أنواعَ الهجمات الشرسة، رأينا المساهمة في نشر مذهب أهل البيت المطهرين صلوات الله عليهم عَبْر نَشْرِ ما خلّفه أئمتهم الأطهار عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وشيعتهم الأبرار رضي الله عنهم، وما ذلك إلا لثِقَتِنا وقناعتنا بأن العقائد التي حملها أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ هي مراد الله تعالى في أرضه، ودينه القويم، وصراطه المستقيم، وهي تُعبِّر عن نفسها عبر موافقتها للفطرة البشرية السليمة، ولما ورد في كتاب الله عزّ وجل وسنة نبيّه صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

واستجابةً من أهل البيت صلوات الله عليهم لأوامر الله

تعالى، وشفقة منهم بأمة جدّهم ﷺ، كان منهم تعميدُ هذه العقائد وترسيخها بدمائهم الزكيّة الطاهرة على مرور الأزمان، وفي كلّ مكان، ومن تأمّل التاريخ وجَدَهم قد ضحّوا بكل غالٍ ونفيس في سبيل الدفاع عنها وتثبيتها، ثائرين على العقائد الهدَّامة، منادين بالتوحيد والعدالة، توحيد الله عز وجل وتنزيهه سبحانه وتعالى، والإيمان بصدق وعده ووعيده، والرضا بخيرته من خَلْقِه.

ولأن مذهبهم صلوات الله عليهم دينُ الله تعالى وشرعه، ومرادُ رسول الله ﷺ وإرْثُه، فهو باقٍ إلى أن يرث الله الأرض ومنْ عليها، وما ذلك إلا مصداق قول رسول الله ﷺ: ((إن اللطيف الخبير نبأني أنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض)).

قال والدنا الإمام الحجّة/ مجدالدين بن محمد المؤيدي(ع): (واعلم أن الله جلّ جلاله لم يرتضِ لعباده إلا ديناً قويماً، وصراطاً مستقيماً، وسبيلاً واحداً، وطريقاً قاسطاً، وكفى بقوله عزّ وجل: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:١٥٣].

وقد علمتَ أن دين الله لا يكون تابعاً للأهواء: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ [المؤمنون:٧١]، ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس:٣٢]، ﴿شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى:٢١].

وقد خاطبَ سيّد رسله صلى الله عليه وآله وسلم بقوله عز وجل: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝١١٢ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ ۝١١٣﴾ [هود]، مع أنه صلى الله عليه وآله وسلم ومن معه من أهل بدر، فتدّبر واعتبر إن كنتَ من ذوي الاعتبار، فإذا أحطتَ علماً بذلك، وعقلتَ عن الله وعن رسوله ما ألزمك في تلك المسالك، علمتَ أنه يتحتّم عليك عرفانُ الحق واتباعه، وموالاة أهله، والكون معهم، ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩]، ومفارقةُ الباطل وأتباعه، ومباينتهم ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة:٥١]، ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا ءَابَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة:٢٢]، ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة:١]، في آيات تُتْلى، وأخبار تُمْلَى، ولن تتمكن من معرفة الحق وأهله إلا بالاعتماد على حجج الله الواضحة، وبراهينه البيّنة اللائحة، التي هدى الخلق بها إلى الحق، غير معرّج على هوى، ولا ملتفت إلى جدال ولا مراء، ولا مبال بمذهب، ولا محام عن منصب، ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ

﴿وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء:١٣٥][(١)].

وقد صَدَرَ بحمد الله تعالىٰ عن مكتبة أهل البيت(ع):

١-الشافي، تأليف/ الإمام الحجة عبدالله بن حمزة(ع) ٦١٤هـ، مذيّلاً بالتعليق الوافي في تخريج أحاديث الشافي، تأليف السيد العلامة نجم العترة الطاهرة/ الحسن بن الحسين بن محمد رحمه الله تعالىٰ١٣٨٨هـ.

٢-مَطْلَعُ الْبُدُوْرِ وَمَجْمَعُ الْبُحُوْرِ في تراجم رجال الزيدية، تأليف/ القاضي العلامة المؤرّخ شهاب الدين أحمد بن صالح بن أبي الرجال رحمه الله تعالىٰ، ١٠٢٩هـ-١٠٩٢هـ.

٣-مَطَالِعُ الأَنْوَارِ وَمَشَارِقُ الشّمُوْسِ وَالأَقْمَارِ - ديوان الإمام المنصور بالله عبدالله بن حمزة(ع) - ٦١٤هـ.

٤-مجموع كتب ورسائل الإمام المهدي الحسين بن القاسم العياني(ع) ٣٧٦هـ - ٤٠٤هـ.

٥-مَحَاسِنُ الأَزْهَارِ في تَفْصِيْلِ مَنَاقِبِ العِتْرَةِ الأَطْهَارِ، شرح القصيدة التي نظمها الإمام المنصور بالله عبدالله بن حمزة(ع)، تأليف/ الفقيه العلامة الشهيد حميد بن أحمد المحلّي الهمداني الوادعي رحمه الله تعالىٰ - ٦٥٢هـ.

٦- مجموع السيد حميدان، تأليف/ السيد العالم نور الدين أبي عبدالله حميدان بن يحيى بن حميدان القاسمي الحسني رضي الله تعالىٰ عنه.

---

(١)- التحف الفاطمية شرح الزلف الإمامية.

٧-السفينة المنجية في مستخلص المرفوع من الأدعية، تأليف/ الإمام أحمد بن هاشم(ع) - ت ١٢٦٩هـ.

٨-لوامع الأنوار في جوامع العلوم والآثار وتراجم أولي العلم والأنظار، تأليف/ الإمام الحجة/ مجدالدين بن محمد بن منصور المؤيدي(ع) ١٣٣٢هـ-١٤٢٨هـ.

٩-مجموع كتب ورسائل الإمام الأعظم أمير المؤمنين زيد بن علي(ع)، تأليف/ الإمام الأعظم زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب(ع) ٧٥هـ-١٢٢هـ.

١٠-شرح الرسالة الناصحة بالأدلة الواضحة، تأليف/ الإمام الحجة عبدالله بن حمزة(ع) - ت ٦١٤هـ.

١١-صفوة الاختيار في أصول الفقه، تأليف/ الإمام الحجة عبدالله بن حمزة(ع) ت٦١٤هـ.

١٢-المختار من صحيح الأحاديث والآثار من كتب الأئمة الأطهار وشيعتهم الأخيار، لِمُخْتَصِرِهِ/ السيّد العلامة محمد بن يحيى بن الحسين بن محمد حفظه الله تعالى، اختصره من الصحيح المختار للسيد العلامة/ محمد بن حسن العجري رحمه الله تعالى.

١٣-هداية الراغبين إلى مذهب العترة الطاهرين، تأليف/ السيد الإمام الهادي بن إبراهيم الوزير(ع) -ت٨٢٢هـ.

١٤-الإفادة في تاريخ الأئمة السادة، تأليف/ الإمام أبي طالب يحيى بن الحسين الهاروني(ع) - ٤٢٤ هـ.

١٥-المنير - على مذهب الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن

القاسم بن إبراهيم (ع) تأليف/ أحمد بن موسى الطبري رضي الله عنه.

١٦- نهاية التنويه في إزهاق التمويه، تأليف السيد الإمام/ الهادي بن إبراهيم الوزير(ع) - ٨٢٢هـ.

١٧- تنبيه الغافلين عن فضائل الطالبيين، تأليف/ الحاكم الجشمي المحسن بن محمد بن كرامة رحمه الله تعالى - ٤٩٤هـ.

١٨- عيون المختار من فنون الأشعار والآثار، تأليف الإمام الحجة/ مجدالدين بن محمد بن منصور المؤيدي(ع) ١٣٣٢هـ-١٤٢٨هـ.

١٩-أخبار فخ وخبر يحيى بن عبدالله (ع) وأخيه إدريس بن عبدالله(ع)، تأليف/ أحمد بن سهل الرازي رحمه الله تعالى.

٢٠-الوافد على العالِم، تأليف/ الإمام نجم آل الرسول القاسم بن إبراهيم الرسي(ع) - ٢٤٦ هـ.

٢١- الهجرة والوصية، تأليف/ الإمام محمد بن القاسم بن إبراهيم الرسي(ع).

٢٢-الجامعة المهمة في أسانيد كتب الأئمة، تأليف/ الإمام الحجة مجدالدين بن محمد بن منصور المؤيدي(ع) ١٣٣٢هـ-١٤٢٨هـ.

٢٣-المختصر المفيد فيما لا يجوز الإخلال به لكلّ مكلف من العبيد، تأليف/ القاضي العلامة أحمد بن إسماعيل العلفي رضي الله عنه ت ١٢٨٢هـ.

٢٤-خمسون خطبة للجمع والأعياد.

٢٥-رسالة الثبات فيما على البنين والبنات، تأليف/ الإمام الحجة عبدالله بن حمزة(ع) ت٦١٤هـ.

٢٦-الرسالة الصادعة بالدليل في الرد على صاحب التبديع والتضليل، تأليف/ الإمام الحجة/ مجدالدين بن محمد بن منصور المؤيدي(ع) ١٣٣٢هـ - ١٤٢٨هـ.

٢٧-إيضاح الدلالة في تحقيق أحكام العدالة، تأليف/ الإمام الحجة مجدالدين بن محمد بن منصور المؤيدي(ع) ١٣٣٢هـ -١٤٢٨هـ.

٢٨-الحجج المنيرة على الأصول الخطيرة، تأليف/ الإمام الحجة مجدالدين بن محمد بن منصور المؤيدي(ع) ١٣٣٢هـ -١٤٢٨هـ.

٢٩-النور الساطع، تأليف/ الإمام الهادي الحسن بن يحيى القاسمي(ع) ١٣٤٣هـ.

٣٠-سبيل الرشاد إلى معرفة ربّ العباد، تأليف/ السيد العلامة محمد بن الحسن بن الإمام القاسم بن محمد(ع)١٠١٠هـ -١٠٧٩هـ.

٣١-الجواب الكاشف للالتباس عن مسائل الإفريقي إلياس - ويليه/ الجواب الراقي على مسائل العراقي، تأليف/ السيد العلامة الحسين بن يحيى بن الحسين بن محمد حفظه الله تعالى.

٣٢-أصول الدين، تأليف/ الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين(ع)٢٤٥هـ - ٢٩٨هـ.

٣٣-الرسالة البديعة المعلنة بفضائل الشيعة، تأليف/ القاضي العلامة عبدالله بن زيد العنسي رحمه الله تعالى - ٦٦٧هـ.

٣٤-العقد الثمين في معرفة رب العالمين، تأليف الأمير الحسين بن بدرالدين محمد بن أحمد(ع) ٦٦٣هـ.

٣٥-الكامل المنير في إثبات ولاية أمير المؤمنين(ع)، تأليف/ الإمام القاسم بن إبراهيم الرسي (ع) ٢٤٦هـ.

٣٦-كتابُ التَّحْرِيْرِ، تأليف/ الإمام الناطق بالحق أبي طالب يحيى بن الحسين الهاروني(ع) - ٤٢٤هـ.

٣٧-مجموع فتاوى الإمام المهدي محمد بن القاسم الحسيني(ع) ١٣١٩هـ.

٣٨-القول السديد شرح منظومة هداية الرشيد، تأليف/ السيد العلامة الحسين بن يحيى بن الحسين بن محمد حفظه الله تعالى.

٣٩-قصد السبيل إلى معرفة الجليل، تأليف السيد العلامة/ محمد بن عبدالله عوض حفظه الله تعالى.

٤٠-نظرات في ملامح المذهب الزيدي وخصائصه، تأليف السيد العلامة/ محمد بن عبدالله عوض حفظه الله تعالى.

٤١-معارج المتقين من أدعية سيد المرسلين، جمعه السيد العلامة/ محمد بن عبدالله عوض حفظه الله تعالى.

٤٢-الاختيارات المؤيَّدية، من فتاوى واختيارات وأقوال وفوائد الإمام الحجة/ مجد الدين بن محمد بن منصور المؤيدي(ع)، (١٣٣٢هـ - ١٤٢٨هـ).

٤٣-من ثمارِ العِلْمِ والحكمة (فتاوى وفوائد)، تأليف السيد العلامة/ محمد بن عبدالله عوض حفظه الله تعالى.
٤٤-التحف الفاطمية شرح الزلف الإمامية، تأليف الإمام الحجة/ مجدالدين بن محمد المؤيدي(ع) ١٣٣٢هـ-١٤٢٨هـ.
٤٥-المنهج الأقوم في الرَّفع والضَّم والجَهْرِ ببسم الله الرحمن الرحيم، وإثبات حيَّ عَلَى خَيْرِ الْعَمَلِ في التأذين، وغير ذلك من الفوائد التي بها النَّفْعُ الأَعَمُّ، تأليف/ الإمام الحجة/ مجد الدين بن محمد بن منصور المؤيدي(ع).
٤٦-الأساس لعقائد الأكياس، تأليف/ الإمام القاسم بن محمد (ع).
٤٧-التحف الفاطمية شرح الزلف الإمامية. تأليف الإمام الحجة/ مجدالدين بن محمد المؤيدي(ع) ١٣٣٢هـ-١٤٢٨هـ.
٤٨-البلاغ الناهي عن الغناء وآلات الملاهي. تأليف الإمام الحجة/ مجدالدين بن محمد المؤيدي(ع) ١٣٣٢هـ-١٤٢٨هـ.
٤٩-الأحكام في الحلال والحرام، للإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم(ع) ٢٤٥هـ-٢٩٨هـ.
٥٠-كنز الرشاد وزاد المعاد، تأليف/ الإمام عزالدين بن الحسن (ع) ت٩٠٠هـ

كما شاركت مكتبة أهل البيت(ع) بالتعاون مع مؤسسة الإمام زيد بن علي(ع) الثقافية في إخراج:
٥١-مجموع رسائل الإمام الهادي(ع)، تأليف/ الإمام الهادي إلى الحق

يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم(ع) ٢٤٥هـ - ٢٩٨هـ.

٥٢-العقد الثمين في تبيين أحكام الأئمة الهادين، تأليف/ الإمام الحجة عبدالله بن حمزة (ع) ٦١٤هـ.

٥٣-المصابيح وتتمّته، تأليف/ السيد الإمام أبي العباس الحسني(ع)-٣٥٣هـ، والتتمّة لعلي بن بلال رضي الله عنه.

٥٤-الموعظة الحسنة، تأليف/ الإمام المهدي محمد بن القاسم الحسيني(ع) -١٣١٩هـ.

ومع مكتبة التراث الإسلامي:

٥٥-البدور المضيئة جوابات الأسئلة الضحيانية، تأليف/ الإمام المهدي محمد بن القاسم الحسيني(ع) - ١٣١٩هـ.

وبالتعاون مع مركز بدر العلمي والثقافي:

٥٦-التحف الفاطمية شرح الزلف الإمامية. تأليف الإمام الحجة/ مجدالدين بن محمد المؤيدي(ع) ١٣٣٢هـ - ١٤٢٨هـ.

٥٧-البلاغ الناهي عن الغناء وآلات الملاهي. تأليف الإمام الحجة/ مجدالدين بن محمد المؤيدي(ع) ١٣٣٢هـ - ١٤٢٨هـ.

٥٨- ديوان الحكمة والإيمان. تأليف الإمام الحجة/ مجدالدين بن محمد المؤيدي(ع) ١٣٣٢هـ - ١٤٢٨هـ.

وهناك الكثير الطيّب في طريقه للخروج إلى النور إن شاء الله تعالى، نسأل الله تعالى الإعانة والتوفيق.

ونتقدّم في هذه العجالة بالشكر الجزيل لكلّ من ساهم في إخراج هذا العمل الجليل إلى النور -وهم كُثُر- نسأل الله أن يكتب ذلك

للجميع في ميزان الحسنات، وأن يجزل لهم الأجر والمثوبة.

وختاماً نتشرّفُ بإهداء هذا العمل المتواضع إلى روح مولانا الإمام الحجة/ مجدالدين بن محمد بن منصور المؤيدي -سلام الله تعالى عليه ورضوانه- باعثِ كنوز أهل البيت(ع) ومفاخرهم، وصاحب الفضل في نشر تراث أهل البيت(ع) وشيعتهم الأبرار رضي الله عنهم.

وأدعو الله تعالى بما دعا به(ع) فأقول: اللهم صلِّ على محمد وآله، وأتمم علينا نعمتك في الدارَيْن، واكتب لنا رحمتك التي تكتبها لعبادك المتقين؛ اللهم علّمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علّمتنا، واجعلنا هداة مهتدين؛ ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ١٠﴾ [الحشر]، نرجوا الله التوفيق إلى أقوم طريق بفضله وكرمه، واللهَ أسأل أن يصلح العمل ليكون من السعي المتقبّل، وأن يتداركنا برحمته يوم القيام، وأن يختم لنا ولكافة المؤمنين بحسن الختام، إنه ولي الإجابة، وإليه منتهى الأمل والإصابة، ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف:١٥].

وصلى الله على سيّدنا محمد وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين.

مدير المكتبة/

إبراهيم بن مجدالدين بن محمد المؤيدي

[مقدمة الإمام]

بسم الله الرحمن الرحيم [(١)]

[اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد[(٢)]].

[قال مولانا أمير المؤمنين الهادي إلى الحق المبين عليه صلوات رب العالمين[(٣)]]: يقول العبد الفقير إلى عفو الله، الغني به عمن سواه، عزُّ الدين بن الحسن، وفقه الله وسدده، وعصمه وأرشده:

أما بعد حمدِ اللهِ الموفقِ لإصابة الخلاص، المرشد إلى منهج الإنابة والإخلاص، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله، الموضِّح لمسالكِ الهدى، المزحزح[(٤)] عن وَرَطَاتِ[(٥)] المهالكِ والردى، وعلى آله[(٦)] المقتفين لآثاره[(٧)]، المستصبحين في أرجاء

---

(١)- قال عليه السلام في: «المعراج إلى كشف أسرار المنهاج»: «باسم الله أبتدئ تأليف هذا الكتاب، ومعناه: أستعين على ذلك بالتسمية ليُمْنِها وبركتها طالبًا للاستعانة، ويُقدَّرُ الفعل [أي: أبتدئ] متأخراً عنها لإفادة الاختصاص». [المعراج: ١٥، نسخة إلكترونية].

(٢)- ما بين المعقوفين من (أ).

(٣)- ما بين المعقوفين من (ب).

(٤)- زَحْزَحه فتزَحْزَحَ: دَفَعه ونَحَّاه عَنْ مَوْضِعِهِ فَتَنَحَّى وباعَدَه مِنْهُ.

(٥)- الورطات كحركات: جمع وَرْطَة وهي: الـهَلَكَة.

(٦)- آله صلى الله عليه وآله وسلم: هم عِترته، وهم: أمير المؤمنين والزهراء والحسنان وذريتهما عليهم السلام، هذا هو الصحيح الذي قامت به الأدلة كخبر الكساء، والثقلين والتمسك، وأخبار المهدي وغيرها، وتفسير الآل بالزوجات أو غيرهن لم يقم عليه دليل.

(٧)- المقتفين: من قفا الأثر يقفوه قَفْوًا، أي: تَبِعَهُ. والآثار: جمع أثر، وهو بقية الشيء، وآثاره صلى الله عليه وآله وسلم: ما تركه، وهو الكتاب العزيز، والسنة الشريفة.

الظلمات بأنواره[١]، وعلى أصحابه وأعوانه وأنصاره.

فإني نظرت[٢] إلى غفلتي[٣] عن اكتساب الزاد المبلغ إلى المعاد، وشغلي لأوقاتي بما لا ينفعني بعد وفاتي، وجموح نفس[٤] عما يؤنسني في رمسي[٥]، ومن نظر في عاجل أمره وعاقبة حاله لم يقرّ به قرار، ولا تؤويه دار، وما وجدت لداء هذه النفس دواءً، ولا لجريها فيما يُوبِقُهَا[٦] انتهاءً، ورجوت أن يُوقِظَهَا من نومتها، ويكسر من هواها وشهوتها، مطالعةُ الكتب الزهدية، وملازمة النظر في مقالات أهل الطريقة المرضية، ولم أجد من هذا القبيل إلا ما هو بسيط طويل، أو ما النفع فيه -لعدم استكماله- قليل؛ فاستخرت الله -تعالى- وقصدت إلى جمع نُبَذٍ[٧] شافية، ونُكَتٍ[٨]

---

(١)- المستصبحين: المستضيئين.

(٢)- أي: نَظَرَ تفكرٍ وتأملٍ وبحثٍ.

(٣)- الغفلة: غيبة الشيء عن بال الإنسان، وعدم تذكره له. وقد استُعمل فيمن تركه إهمالا وإعراضا. [مصباح]. وقال الراغب: الغفلة: سهو يعتري الإنسان من قلة التحفظ والتيقظ. [المفردات].

(٤)- جَمَحَتِ الفرسُ: استعصتْ على راكبها حتى غلبته، لفرط نشاطها، واستعارة الجموح هنا للنفس لبيان أثرها في غلبة صاحبها، حتى تصرفَهُ عما لا يليق أن ينصرفَ عنه، مع أنه يمكنه قيادتها إلى ما يريد؛ لأنه ممسك بزمامها، متمكن من قِيادها.

(٥)- الرَّمْسُ: التراب، ثم سمي القبر به. ويؤنسني: أي ما يطمئن إليه قلبي؛ يقصد العمل الذي يكون أنيس الإنسان في وحشة قبره؛ ولا يكون كذلك إلا إذا كان صالحا.

(٦)- يُوبِقُها: يُهلكها.

(٧)- النُّبَذُ: الشيء اليسير.

(٨)- جمع نُكْتَة كنقطة، وتطلق على الفكرةِ اللطيفةِ المؤثرة فِي النَّفس، وَالْمَسْأَلَةِ العلميةِ الدقيقةِ يُتَوَصَّلُ إِلَيْهَا بدقةٍ وإنعامِ فِكْرٍ. [الوسيط].

بالمراد وافية؛ تتضمن قلَّةً في اللفظ، وسِعَةً في المعنى؛ ليسهلَ عليَّ ملازمة مطالعته في أكثر أوقاتي، واستصحابه في حضرٍ وسفر، ومَلَاءٍ وخلاء[1]؛ عساه أن يخفف من عيوبي وآفاتي[2].

وجعلته مشتملاً على: مقدمة، وفصلين، وخاتمة.

فالمقدمة: في ذكر سبب الغفلة عن الموت، وعدم اختيار العقلاء -مع كمال عقولهم- ما يفضي بهم إلى السعادة الطويلة.

وذكر السبب في غفلة العبد حال قيامه لمناجاة ملك السموات والأرض، مع علمه أنه حاضر لديه، ورقيب عليه.

وأما الفصلان:

فالأول منهما: فيما ينبغي للعبد تجنبه من الأخلاق الذميمة.

والثاني: فيما يليق به ملازمته من الطرائق القويمة.

وأما الخاتمة: ففيما يصلح به الحال، ويحصل به الفوز في المآل: من ذكر أمهات المعاملة[3]، وأنواعها، وتعدادها، وتفصيلها، ومن توظيف الوظائف الحسنة، وتوزيع الأوقات على المهمات، ومن إمعان النظر فيما ينجي من الخطر، الوارد في الخبر المشهور: ((والمخلصون على خطر عظيم)).

والله سبحانه ولي التوفيق، والهداية إلى واضح الطريق.

---

(١)- أي: في حال كوني مختلطا ومجتمعا بالناس، وفي حال كوني مختليا بنفسي.

(٢)- الآفات: جمع آفة، وهي الفساد يعتري الشيء. والعيوب: جمع عيب، وهو ما يعاب به الإنسان؛ أي: يُنْتَقص به.

(٣)- المعاملة: مفاعلة، وهي: عمل يشترك فيه فاعلان، والمعاملة نوعان: معاملة بينك وبين الخالق، ومعاملة بينك وبين المخلوق.

المقدمـــة

وهي قسمان:

[القسم الأول

سبب الغفلة عن الموت
وعدم اختيار ما يفضي إلى السعادة الطويلة]

الأول: في ذكر سبب الغفلة عن الموت، وعدم اختيار العقلاء -مع كمال عقولهم- ما يفضي بهم إلى السعادة الطويلة:

اعلم أن الذي يقضي منه العجب حال الإنسان في غفلته عن الاهتمام بأمر الموت، وفي عدم الروعة منه، مع تيقن أن لا بد منه، وأنه في حال السعي إليه لا يَفْتُرُ[(١)] عن ذلك لحظة، قال بعض الأولياء: «ما رأيت يقينًا لا شك معه أشبه بالشك الذي لا يقين معه مثل الموت[(٢)]». وما هكذا حال كامل العقل والتمييز.

عن ابن عباس، أنه كان إذا قرأ: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ [مريم٨٤]، بكى، وقال: آخر العدد خروج نفسك، آخر العدد فراق أهلك، آخر العدد دخول قبرك.

---

(١)- لا يفتر: لا يسكن ولا يهدأ ولا يَكُفُّ.

(٢)- روى الإمام الموفق بالله عليه السلام في: الاعتبار وسلوة العارفين [٢٩٩] عن الحسن البصري: «ما رأيت يقيناً أشبه بالشك من يقين الناس بالموت مع غفلتهم عنه، وما رأيت صدقاً أشبه بالكذب من قول بعض الناس: إنا نطلب الجنة مع عجزهم عنه».

وعن ابن السماك، وقد قرأها: إذا كانت الأنفاس بالعدد، ولم يكن لها مدد، فما أسرع ما تنفد.

يقال: إن أنفاس ابن آدم بين اليوم والليلة أربعة وعشرون ألف نَفَس[١]، في اليوم اثني عشر ألفاً، وفي الليلة اثني عشر ألفاً.

وقريبٌ من هذه الغفلةُ[٢] عما بعد الموت، وعدمُ اختيار العقلاء -مع كمال عقولهم- ما يفضي[٣] بهم إلى السعادة الطويلة.

قيل إن الكنز المراد به في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ [الكهف٨٢]: «لوح من ذهب، مكتوب فيه: عجبت لمن يوقن بالقدر كيف يحزن!؟ وعجبت لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب!؟ وعجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح!؟ وعجبت لمن

---

(١)- التنفس في الإنسان البالغ يشمل عمليتين: **الشهيق**: وهو إدخال الهواء إلى الرئتين اللتين تمتصان منه غاز «الأكسجين»، **والزفير**: وهو إخراج الهواء من الرئتين اللتين تطردان معه غاز «ثاني أكسيد الكربون»، وما ذكره الإمام -عليه السلام- مقارب لما يقوله أهل الطب إذ يقولون إن الإنسان يتنفس -أي: يشهق ويزفر- في حال الراحة من «١٦» إلى «٢٤» نفسا في الدقيقة الواحدة، ولو أخذنا المتوسط: «٢٠» نَفَسًا، فيكون تنفسه في الساعة الواحدة: «١٢٠٠» نَفَس، و«١٤٤٠٠» نفس في «١٢» ساعة (اليوم الواحد)، ومثلها في الليلة الواحدة، فيكون المجموع «٢٨٨٠٠» نفس في الـ«٢٤» ساعة. مع ملاحظة أن تنفس الأطفال المولودين حديثا يزداد عن البالغين؛ فيتراوح بين «٣٠» إلى «٤٠» تنفسا في الدقيقة الواحدة.

(٢)- خبر المبتدأ: «قريب».

(٣)- يفضي بهم: ينتهي بهم.

يؤمن بالحساب كيف يغفل!؟ وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها[1]؟».

والسبب في جميع ذلك: حب الدنيا، وطول الأمل.

وقيل: السبب تركيب الإنسان تركيباً يحتاج فيه إلى دفع المضار العاجلة، قبل حضور وقت المضار الآجلة، فهو في العاجلة مستغرق بدفع مضار: الجوع والعطش، والحر والبرد، والخوف والسقم، والغم والقهر، والإهانة والاستخفاف والشماتة، ونحوها من الأحوال.

ألا ترى أن تجرعه غصص الموت أهون من تجرعها، فيهون الاهتمام به بالنظر إلى الاهتمام بها.

وقد أثر عنه صلى الله عليه وآله وسلم: أن أشقَّ من الموت، ما يتمنى الموت من أجله؛ فلذلك هان في قلبه هم ما يعلمه مما يصير إليه في المستقبل من ضرر الموت.

---

(١)- أخرج الإمام الموفق بالله عليه السلام في الاعتبار وسلوة العارفين [٥٤] رقم (٢٥)، بإسناده مرفوعا عن أنس بلفظ: ((كان تحت الجدار الذي ذكر اللّه في القرآن لوح من ذهب فيه: بسم اللّه الرحمن الرحيم عجباً لمن يؤمن بالموت كيف يفرح، وعجباً لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن، وعجباً لمن يوقن بالنار كيف يضحك، وعجباً لمن يرى زوال الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها، لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه))، وقال عليه السلام عقيبه: «وقد أسند إلى الصادق هذا الخبر في بعض مواعظه».

والأقرب -والله أعلم- أن السبب الحقيقي: هو سلب الله تعالى للخواطر(١) المنصرفة إلى ذكر الموت، وتصور حقيقة أمره، وسلب الدواعي(٢) إلى الاشتغال به؛ لما في ذلك من اعتمار الدنيا وانتظام أمرها، الذي هو مقصود للحكيم. ولو أن الناس نَزَّلُوا أمرَ الموت منزلته اللائقة به، لاقتضى ذلك أن تخرب الدنيا ولا تعمر، ولكان جديراً بأن لا يعمل من أعمالها شيئاً؛ فإن من لا يثق بالحياة لحظة، كيف يتعب نفسه، ويسهر ليله، في محاولة أمور إنما يفتقر إليها مَنْ شأنُه أنْ يخلد؟ والله أعلم.

ومثال حال الإنسان في تيقنه أنه يسعى كل يوم وليلة مرحلتين إلى الموت، مع غفلته عن الاهتمام به، والانزعاج لأجله: حال من أذنب إلى ملك ذنباً عظيماً يقتضي قتله، فأمر

(١)- **الخواطر**: واحدها: الخاطر، وهو مَا يَخْطُرُ فِي الْقَلْبِ مِنْ تَدْبِيرٍ أَو أَمْرٍ، يقال: خطر بباله أو على باله: إذا ذكره بعد نسيان، أو إذا وقع ذلك في باله وما وجد له ذكرا. [عن لسان العرب]. وذكر الإمام عليه السلام في كتابه: «المعراج إلى كشف أسرار المنهاج» أن الخاطر -في علم الكلام-: كلامٌ خفيٌّ يلقيه الله تعالى، أو الـمَلَكُ بأمره تعالى في باطن سمع المكلف، أو في ناحية صدره، وفي الفرق بينه وبين الوسوسة أفاد أنه يفارق الوسوسة بكونه من جهة الله تعالى، وداعيًا إلى الخير أي: الطاعة، وهي من جهة الشيطان، وداعية إلى الشر أي: المعصية. [عن المعراج ١٣٧ -١٣٨ نسخة إلكترونية]. وسيأتي للإمام تفصيل في الخواطر وأنواعها في الفصل الثاني: الخلق العاشر: الصمت.

(٢)- **الدواعي**: واحدها: **الداعي**، وهو مَا يُرجحُ وجودَ فعلٍ على عدمه من غير تأثير، وهو ينقسم إلى: **داعي حكمة**: وهو علم الحي أو ظنه أو اعتقاده بحسن الفعل وأن للغير فيه جلب نفع أو دفع ضرر.

الملك بإحضاره لذلك من مسافة بعيدة، وقد رأى السيف مُصْلَتًا[(١)]، وشاهد من تأهب[(٢)] لضرب عنقه، فسار به المأمورون بإحضاره، وهم يطعنونه في جوانبه، بِأَشِظَّةٍ[(٣)] حادة، لا يسلم منها إلا إذا اتقاها بحَجَفَة[(٤)] في يده، فما اتقاه من ذلك سَلِمَ مضرتَّه، وقطعَه لجسمه، وما لم يَتَّقِهِ آلَمَهُ؛ فصار مشغولاً مستغَرقَ الذهن باتقاء تلك المطاعن، عن اهتمامه بما هو ساعٍ إليه من ضرب عنقه وإزهاق روحه، حتى هان عليه ما هو ذاهب إليه في جنب ما قد صار فيه.

[الدواء]

نعم، فلو أن الإنسان قطع موادَّ[(٥)] ما شغله عن الاهتمام بالموت من تلك المذكورة، الممثلة بما يَلْحَقُ الـمُقَدَّمَ للقتل في طريقه، ليُفْرِّغَ قلبه لإدراك همّ الموت، وما بعده، لاشتَغلَ به، واستَغرقَ في ذلك وُسْعَهُ وجُهدَهُ.

فليستعن العبد على ذلك بما ورد في الحثِّ على ذكر الموت،

(١)- مُصْلَتًا: مجردا من غمده، أَصْلَتَ السيفَ جَرَّده مِنْ غِمْده، فَهُوَ مُصْلَتٌ.

(٢)- تَأَهَّبَ: تجهَّزَ واستعد.

(٣)- الأَشِظَّة: واحدها: شِظَاظ، خُشبية محددة الطرف.

(٤)- الحَجَفَة بحاء مهملة فجيم: واحدةُ الحُجُف، تُرْسٌ يصنع من جلود لا خشب فيها.

(٥)- مَوَاد: جمع: مادَّة، وهي كُلُّ شَيْءٍ يَكُونُ مَدَداً لِغَيْرِهِ، والمدد: الزيادة، والتقوية، والإعانة، والتكثير.

وقَصْرِ الأمل، مما لا يكاد ينحصر، كقوله صلى الله عليه وآله وسلم: ((أَكْثِرُوا مِنْ ذِكْرِ هَاذِمِ اللَّذَاتِ؛ فَإِنَّهُ مَا كَانَ فِي كَثِيرٍ إِلَّا قَلَّلَهُ، وَلَا قَلِيلٍ إِلَّا جَزأَهُ[(١)])) أي كفاه.

ورد هذا الحديث بهذا اللفظ وبما في معناه في عدة كتب، من عدة طرق، تنتهي إلى عدة من الصحابة؛ كابن عمر، وأنس، وأبي هريرة، وفي بعض طرقه: ((فَإِنَّهُ مَا ذَكَرَهُ أَحَدٌ فِي ضَيقٍ مِنْ الْعَيْشِ إِلَّا وَسَّعَهُ، وَلَا فِي سَعَةٍ إِلَّا ضَيَّقَهُ عَلَيْهِ[(٢)])).

---

(١)- أخرج السيد العلامة محمد بن يحيى **حفظه الله** تعالى في: المختار من صحيح الأحاديث والآثار [٢٥٣]، عن أمير المؤمنين -صلوات الله عليه- أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال: ((أديموا ذكر هاذم اللذات))، قالوا: وما هاذم اللذات يا رسول اللَّه؟ قال: ((الموت، فإنه من أكثر ذكر الموت سلا عن الشهوات، ومن سلا عن الشهوات هانت عليه المصيبات، ومن هانت عليه المصيبات سارع إلى الخيرات)). وفي مسند الإمام زيد بن علي -عليهما السلام- [٢٨٠] رقم (٦٠٩) مثله، ومثله في: تيسير المطالب في أمالي أبي طالب عليه السلام [٥٧٧] برقم (٨١٥). وبلفظ الإمام أخرجه الطبراني في الأوسط [٦/ ٥٦] رقم (٥٧٨٠)، والبيهقي في شعب الإيمان [١٣/ ١٣٧] رقم (١٠٠٧٤).

والموت هاذم اللذات أي: قاطعها في سرعة، انشغالاً بأمره والتفكر فيه وفي عاقبته بالتوجه لإصلاح العمل والسعي فيما يحمد عاقبته بعد الموت؛ لأن العبد بتذكر الموت ينسى أمر شهوته أو يكاد ، فلا يبالي بما يعترضه من المصائب في مقابل ما ينتظره من حياة أبدية فيسارع إلى فعل كل خير.

(٢)- أخرجه: ابن حبان [٧/ ٢٦٠] رقم (٢٩٩٣)، والبزار [١٣/ ٣٥٢] رقم (٦٩٨٧).

ولا ينبغي لمؤمن أن يكره الموت؛ لقوله صلى الله عليه وآله وسلم: ((تُحْفَةُ المؤمِنِ الموتُ[١]))، ونحوه.

القسم الثاني:

[سبب غفلة العبد حال مناجاة ملك السموات والأرض]

من المعلوم أن المنتصب لخطاب ملك من ملوك الدنيا يجمع قلبه عليه[٢]، ويحسن التَّودد إليه[٣]، ويتحرز التحرز الكلي عن أن يَفْرُطَ[٤] منه كلمة مستهجنة، أو التفاتة غير مستحسنة، أو ذهول عما يخاطبه به، أو يتلقاه من خطابه، وإن كان لا يخاف نقمته، ولا يرجو نعمته.

فيا عجباه[٥] من منتصب لمناجاة ملك السموات والأرض،

---

(١)- أخرجه: الإمام الموفق بالله عليه السلام في الاعتبار [٢٦٠] رقم (٢٧٤)، وعبد بن حميد في المنتخب [١/١٣٧] رقم (٣٤٧)، والهيثمي في مجمع الزوائد [٢/٣٢٠] رقم (٣٨٩٧) وعزاه إلى الطبراني في الكبير، وتُحْفَةُ المؤمنِ الموتُ أَي أنه يصل به إلى ما وعده الله تعالى من الكرامة والعيش في دار المقامة، ويرتاح به من الدنيا وما فيها من المشقة والتعب.

(٢)- أي: يعزم عليه، وينويه ويقصده، بمعنى: التركيز على الشيء كما نقول هذه الأيام؛ أي: أن تُرَكِّزَ على الشيء -أو على الملك في كلام الإمام- انتباهَكَ، فتجعله مركزا يجتمع عليه انتباهك دون أي شيء آخر.

(٣)- التَّوَدُّدُ: التَّحَبُّبُ؛ أي: فعلُ ما يُحَبِّبُكَ إليه.

(٤)- يَسْبِقَ منه كلام لا يليق، فيكون مستهجنا، والهُجْنَةُ من الكلام: ما يستقبح.

(٥)- قوله: «فيا عجبا» من: العَجَب، والمراد هنا: الاستقباح، والتَّهَوُّلُ منه والاستغراب.

وهو يعلم أنه حاضر لديه، ورقيب عليه، وأنه محتاج في كل لحظة إليه، غير مستغن عنه، وأن إحسانه إليه فوق كل إحسان، وعاقبة عصيانه أنه الخلود في قعر النيران، وأن عظمته لا تدانيها عظمة سلطان؛ ومع ذلك يترك الإقبال عليه، ويَعْرِضُ له الذهولُ عنه، لخواطرَ دنيوية، ووساوسَ غيرِ نافعة، ولا مرضية، حتى لا يشعر بمعاني ما يتلوه في صلاته، ولا يعقل ما المطلوب بها، ويسهو عن أركانها وأذكارها؛ هذا مما تحار فيه العقول.

ومن أمعن النظر في ذلك، وجد سببه ما تقدم ذكره، وهو سبب الغفلة عن همِّ الموت؛ مع تَيَقُّنِ السعي إليه، وعن همِّ ما بعده؛ مما يدهش الألباب، ويوجب مداومة الانتحاب[1].

[الدواء]

ولعل السبيل إلى التحفظ عن تلك الشواغل في حال الصلاة، التي هي عماد الدين، والفارقة بين الكفرة والمؤمنين، التي فرضها الله ليتطهر بها عباده عما اقترفوه فيما بين أوقاتها من الذنوب، ويغسلوا بها أبدانهم وأرواحهم عن درن الحوب[2]؛

---

(١)- دَهِشَ: الدَّهَشُ: ذهابُ الْعَقْلِ مِنَ الذَّهَلِ والوَلَهِ، وَقِيلَ مِنَ الْفَزَعِ وَنَحْوِهِ، والألباب: جمع لُبٍّ، ولبُّ الرجل: ما جُعل له في قلبه من العقل. والانتحاب: «النَّحْبُ والنَّحِيبُ: رَفْعُ الصَّوتِ بالبكاءِ، وَفِي الْمُحْكَمِ: أَشدُّ البكاءِ.

(٢)- الدَرَن: الوسخ، والحُوْب: الإثم.

كما يشعر به قوله صلى الله عليه وآله وسلم: ((مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الخَمْسِ كَمَثَلِ نَهَرٍ جَارٍ يمرُّ عَلَى بَابِ أَحَدِكُمْ، يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَومٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ[١])) -وفي رواية-: ((فَمَاذَا تَرونَ يَبْقَى عَلَيْهِ مِنَ الدَّرَنِ بَعْدَ ذَلِكَ[٢]))، هو[٣] أن يصرف العبد ذهنه إلى أن قيامه للوضوء والصلاة إنما هو:

-لخطاب ملك الملوك.

-والاعتذار إليه من التقصير في الحياء منه في أحواله السابقة.

-وليطلب منه العفو والمسامحة والإحسان.

-ولأداء ما كلفه من العبادة.

وعن الحسن -عليه السلام-: أنه كان إذا قام للوضوء اصفَرَّ لونه، وانْتُقِعَ[٤]، وقال: «علمت أني قمت للتهيؤ لخطاب ملك الملوك، فارتعدت لهيبته[٥]».

---

(١)- رواه الإمام أحمد بن عيسى عليه السلام في الأمالي، وفي آخره: ((يغتسل فيه كل يوم خمس اغتسالات)). وروى مسلم [١/ ٤٦٣] برقم [٢٨٤-(٦٦٨)]: ((مثل الصلوات الخمس كمثل نهر جار، غمر على باب أحدكم، يغتسل منه كل يوم خمس مرات)). وفي آخرها قال الحسن: «وما يبقي ذلك من الدرن؟». وأخرج نحوه: البخاري [١/ ١١٢] رقم (٥٢٨)، ومسلم [١/ ٤٦٢] رقم [٢٨٣-(٦٦٧)].

(٢)-ترفع بعض الروايات هذا الكلام إليه صلى الله عليه وآله وسلم، والبعض موقوفًا عن الحسن البصري.

(٣)- خبر: لعلّ، في قوله: «لعل السبيل».

(٤)- انْتُقِعَ، بالبناء للمجهول: تغَيَّرَ لونُه مِن حُزنٍ أو فزع.

(٥)- ويروى هذا أيضًا عن سيد العابدين علي بن الحسين عليه السلام: أنه كان إذا توضأ وفرغ من وضوئه أخذته رعدة فقيل له في ذلك. فقال: ويحكم، أتدرون إلى من أقوم ولمن أريد أن أناجي. [ابن حجر الهيتمي في الزواجر ١/ ٢٧].

وإنما يتم ثواب الصلاة، وفضلها، بالخشوع[1]؛ ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون١-٢].

[ما ينبغي للمصلي استحضاره من أول الوضوء إلى انتهاء الصلاة]

وهذا تفصيل ما ينبغي للمصلي استحضاره عند الشروع في الوضوء إلى الفراغ من الصلاة:

[الشروع في الوضوء]

فإذا شرع في وضوئه: استحضر في ذهنه ما استحضر الحسن عليه السلام، حتى يفرغ منه.

ولا يخلي وضوءه، ولا شيئًا منه، عن ذكر الله تعالى، بما ورد به الخبر، واستحسنه الفضلاء، وهو مذكور في مواضعه.

فإذا فرغ، دعا بدعاء الفراغ المأثور عنه صلى الله عليه وآله وسلم.

ثم استقبل القبلة للصلاة، وجدد العزم على أن لا ينطق بشيء من ألفاظ ذكرها إلا وهو ذاكر لمعناه، قاصداً لأداء ذلك المعنى.

(١)- الخشوع: حضور القلب مع سكون الجوارح.

[الشروع في الأذان]

فإذا شرع في الأذان فقال: (اللهُ) ذَكَرَ أن معناه: الإله الذي تحق له العبادة والخضوع[(١)].

وإذا قال: (أَكْبَر) ذكر أن معناه: أكبرُ مِن كلِّ كبيرٍ يكبرُ في النفوس. ثم يقصد بتكراره أن يتمكن في نفسه، ونفس من سمعه.

وفي قوله: (أشهدُ أَلَّا إلهَ إِلَّا الله) يريد: أنه يُخبِرُ عن يقينٍ أنْ لا إله تحق له العبادة إلا ملك السموات والأرض. ثم يقصد بتكراره ما تقدم.

وفي قوله: (أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ): يستحضر ما علم به نبوءته؛ من إتيانه بالمعجزة الباقية؛ وهي القرآن، وغيرها. فإذا فرغ من الشهادتين، نوى الدعاء إلى العبادة العظمى؛ فقال:

(حَيَّ عَلَى الصَّلَاة) أي: هَلُمَّ إلى الصلاة، قاصداً نفسه، وسامعه؛ أي: احضروا إلى هذه العبادة التي افترضها علينا ربنا. ويكرره ليتمكن في النفس. ثم يقصد توكيد ذلك الدعاء؛ بأن يقول:

(حَيَّ عَلَى الفَلَاح) أي: هَلُمَّ إلى ما يحصل به فلاحنا، وهو: الفوز بجزيل الثواب، والسلامة من وبيل العقاب. ويكرر لما سبق.

ثم يقصد توكيد الدعاء إلى الصلاة، يذكر أنها خير الأعمال

---

(١)- الخضوع: التواضُع والتَّطامُن، والخُضوع: الانْقِيادُ والمُطاوعةُ، واللين في القول، قال تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ [الأحزاب٣٢].

الجالبة للنفع، الدافعة للضرر؛ فيقول:

(حَيَّ عَلَىٰ خَيْرِ العَمَل) أي: أفضله. ويكرره لما سبق.

ثم يقصد توكيد الدعاء بأن الله أمره بها، وهو أكبر مَن يجب امتثال أمره؛ فيعيد التكبير، ويكرره، كما مر.

ثم يقصد توكيد الاهتمام بما دعا إليه بأن يخبر بانفراد الله باستحقاق العبادة، وأن غيره لا يشاركه في ذلك فيقول: (لَا إِلَهَ إِلَّا الله).

[الشروع في الإقامة]

فإذا شرع في الإقامة استحضر تلك المعاني، وأراد بقوله: (قَدْ قَامَتِ الصَّلَاة): التنبيه على حضور وقتها، وأوانِ القيام لها، والدخولِ فيها.

فإذا فَرِغَ منها، أحضرَ في ذهنه أنه خارج من خطاب نفسه، وجنسه، إلىٰ مخاطبة ملك الملوك.

[الشروع في الصلاة]

فيبدأ بالاستعاذة[١]، طالبًا من الله سبحانه، أن يطرد عنه الشيطان الذي يدعوه إلىٰ ما يغفله عن استحضار عظمة الله في قلبه؛ لأنه قد ورد الأثر، عن سيد البشر:

أن العبد إذا توجَّه مصلياً، قام على يمينه ملك، وعلى شماله

(١)- **الاستعاذة:** هي «الالتجاء والمفزع إلىٰ الله تعالىٰ، والاعتصام به».

شيطان، فيقول له الملك: أَقْبِلْ بقلبك على ربك، ويقول له الشيطان: اذكر كذا، واعزم على كذا. فيكتب له من صلاته ما حضر قلبه فيه؛ فقد ينصرف وله من صلاته كلها: نصفها، ثلثها، ربعها، إلى عشرها. فإذا انصرف قال له الملك: لو أطعتني لكان لك كذا وكذا(١). هذا معنى الخبر، لا لفظه.

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم: ((لَا يَنْظُرُ اللهُ إِلَى صَلَاةٍ لَا يُحْضِرُهَا العَبْدُ قَلْبَهُ)).

فينبغي إذا قام للتوجه أن يستفتحه بالتعوذ من الذي يتسلط عليه حال الصلاة كما ذكرنا.

ثم يُقَدِّم على نية الصلاة إيقاظَ(٢) نفسه لعظمة من يريد

---

(١)- روى أبو داوود في سننه [١/ ٢١١] رقم (٧٩٦) عن عمار بن ياسر: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «إن الرجل لينصرف وما كتب له إلا عشر صلاته تسعها ثمنها سبعها سدسها خمسها ربعها ثلثها نصفها»، وروى أبو يعلى في مسنده [٣/ ١٩٧] رقم (١٦٢٨): أَنَّ عَمَّارًا صَلَّى فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: لَقَدْ خَفَّفْتَ الصَّلَاةَ يَا أَبَا الْيَقْظَانِ، قَالَ: هَلْ رَأَيْتَنِي نَقَصْتُ مِنْ حُدُودِهَا شَيْئًا؟ شَهِدْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم يَقُولُ: ((إِنَّ الرَّجُلَ لَيُصَلِّي، ثُمَّ يَنْصَرِفُ مَا كُتِبَ لَهُ إِلَّا نِصْفُهَا، ثُلُثُهَا، رُبُعُهَا، خُمُسُهَا، سُدُسُهَا، ثُمُنُهَا، تُسْعُهَا، عُشْرُهَا))، وفي جزء فيه ما انتقى أبوبكر أحمد بن موسى ابن مردويه على أبي القاسم الطبراني من حديثه لأهل البصرة أبو القاسم الطبراني [١٠٠] رقم (٤٠): صَلَّى عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ صَلَاةً خَفَّفَ فِيهَا فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ فَقَالَ إِنِّي بَادَرْتُ الْوَسْوَاسَ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم يَقُولُ: ((إِنَّ الرَّجُلَ لَيُصَلِّي الصَّلَاةَ مَا يُكْتَبُ لَهُ فِيهَا إِلَّا نِصْفُهَا ثُلُثُهَا رُبُعُهَا خُمُسُهَا سُدُسُهَا عُشْرُهَا)).

(٢)- مفعول: يقدِّم.

مناجاته والتقرب إليه؛ ليدخل فيها بخاطر حاضر؛ فيقول:

﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ [الأنعام٧٩]؛ أي: صرفت وجهي إلى الجهة التي أُمِرتُ باستقبالها، تعبدًا لخالقِ السموات، ورافعِ سمكها[١]، والأرضِ وساطِحِها[٢] قرارًا للورى، حال كوني: ﴿حَنِيفًا﴾ أي: مائلاً بنفسي عن كل دين غير هذا الدين، ﴿مُسْلِمًا﴾ أي: مستسلماً منقادًا لأمر ربي، ﴿وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ لغيره في عبادتي له، ﴿إِنَّ صَلاَتِي﴾ [الأنعام١٦٢]، هذه، ﴿وَنُسُكِي﴾ أي: كل ما أتقرب به، ﴿وَمَحْيَايْ﴾ أي: حدوث محياي بخروجي من الجمادية إلى الحيوانية، ﴿وَمَمَاتِيَ﴾ أي: خروجي بعد الحياة إلى الموت، ﴿لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: حصلا باقتداره، ﴿لاَ شَرِيكَ لَهُ﴾ [الأنعام١٦٣]، في عبادتي له ، واقتداره على محياي ومماتي، ﴿وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ﴾ أي: باعتقاد عدم الشريك، والعلم باختصاصه بذلك، (وَأَنَاْ مِنْ الْمُسْلِمِينَ)؛ أي: المنقادين لأمره.

ثم يحمد الله الذي هداه، وأقدره على ذلك، ونزهه عن مقالة المشركين؛ فيقول: ﴿الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَم يَكُن

---

(١)- السَّمْكُ: الارتفاع، قال تعالى : ﴿رَفَعَ سَمْكَها فَسَوَّاها﴾ [النازعات:٢٨].

(٢)- قال الراغب: السَّطْحُ: أعلى البيت. يقال: سَطَحْتُ البيتَ: جعلت له سطحا، وسَطَحْتُ المكان: جعلته في التّسوية كَسَطْحٍ، قال تعالى : ﴿وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية٢٠]، [مفردات الراغب].

لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ﴾ أي: ناصر ﴿مِّنَ الذُّلِّ﴾ [الإسراء١١١]، بل هو القاهر لكل قاهر، يحضر قلبه لقصد هذه المعاني عند النطق بذلك، فإنه ما أمر بها إلا ليستحضر معانيها، ويعرف مبانيها.

ثم ينوي الصلاة التي يريدها بقلبه، ويقصد بفعلها تعظيمَ الله تعالىٰ، والتقربَ إليه؛ امتثالاً لأمره، وإتباعًا لسنة نبيئه ﷺ، فإذا نوىٰ ذلك، افتتح الصلاة بالإحرام؛ فيقول:

(اللهُ أَكْبَرَ)، وتفسيره ما مر، ويستحضر نيَّة الإحرام؛ وهو تحريم كلِّ فعلٍ وقولٍ بعد التكبير سوىٰ تأدية ما أُمِرَ به من الأذكار والأركان ويوطن نفسه بعزيمة صادقة علىٰ استيفاء الأذكار والأركان علىٰ الوجه الذي أمر به من وجوب، وندب، قاصداً معاني الألفاظ وعلىٰ استكمال الأركان، وتأدية أذكارها، وعدم الانتقال عن شيء منها قبل تمامه.

ومعاني الفاتحة التي ينبغي له استحضارها: ما نذكره الآن: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ﴾ أي: أشرع في القراءة المشروعة، مستعيناً باسم الله رحمانِ الدنيا والآخرة ورحيمهما.

﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: الثناء والوصف الجميل يختص به ملك العالمين.

﴿الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ﴾ أي: المحسن إلىٰ عباده بنعم الدنيا والآخرة.

﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ أي: مالك الأمر يوم الجزاء.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أي: لا نعبد غيرك.

﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ على تأدية عبادتك، لا نستعين عليها إلا بك.

﴿اهدِنَــــا الصِّرَاطَ الْمُستَقِيمَ﴾ أي: أرشدنا بألطافك إلى طريق رضاك عنا، وذلك الصراط: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ﴾ وهم المتبعون ملةَ إبراهيم، ﴿غَيرِ الْمَغضُوبِ عَلَيهِمْ﴾ وهم اليهود، ﴿وَلاَ الضَّالِّينَ﴾ وهم النصارى.

ثم ينوي تلاوة الآيات المفروضة بعد الفاتحة[1]، فإذا فرغ من الفاتحة والسورة، نوى بركوعه أن يطأطئ عنقه؛ خضوعاً لخالقه؛ فيكبر منتقلاً إليه، مُخْطِرًا بباله حال تكبيره أنَّ الذي أريد الخضوع له أكبر من كل كبير في النفوس.

ثم يأتي بالتسبيح والتعظيم؛ فيقول: (سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ، وَبِحَمْدِهِ) أي: خضعت لله، شافعًا خضوعي بتنزيهه[2]، وتعظيمه، وتحميده، ثم يعمد[3] إلى الاعتدال، ناويًا امتثال أمر الله فإذا أكمل

---

(١)- وينبغي عليك استحضار معاني الآيات التي تقرؤها بعد الفاتحة، مثلما استحضرت معاني الفاتحة التي ذكر الإمام عليه السلام معانيها تسهيلا عليك، وهنا عليك أن تعرف معاني تلك الآيات؛ بالرجوع إلى كتب التفسير كتفسير أهل البيت -عليهم السلام-: المصابيح، أو تفسير الإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام المطبوع ضمن مجموعه.

(٢)- شافعا أي: مُثَنِّيًا، والتسبيح: هو التنزيه والتبعيد.

(٣)- يعمد إلى كذا: يقصد إليه.

اعتداله دعا بتقبل حمده في ركوعه؛ بأن يقول: (سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَه) قاصدًا أداء ما شرع عليه في صلاته من التسميع.

ثم يقصد الانتقال إلى أعظم التذلل لخالقه؛ بأن يضع وجهه، أشرف جسده، على الأرض؛ إهانة له في طلب رضا مولاه؛ فإذا استحضر ذلك كله كاملاً، كَبَّرَ، ونوى الإله الأعظم من كل كبير يحق له إهانة أشرف جسدي تلك الإهانة، وإذا استكمل قَصْدَ ذلك، هوى إلى أن يصير ممكِّنًا جبهته وأنفه على الأرض، ثم يقصد بتسبيحه ما مر في الركوع؛ إلا أنه يقول هنا: (الْأَعْلَى) أي: الذي لا انخفاض لعظمته، ثم ينوي بالاعتدال ما مر، ثم ينوي تكرار ذلك الخضوع؛ فيثني السجود ناوياً ما مر.

ثم ينوي القيام لرب العالمين؛ فيكبر أي: هو أكبر من كل كبير؛ فيحق له القيام لعبادته. ثم يفعل في الركعة الثانية كالركعة الأولى.

وليحذر أن تعجله نفسه وشيطانه، فلا يستكمل الأذكار، والأركان، على الوجه المذكور، فيفوته الفضل المبرور.

وإذا أراد القعود للتشهدين نوى امتثال ما شرع من النطق بهما، وأراد بقوله: (بِاسْمِ اللهِ، وَبِاللهِ)؛ أي: إن ما آتي به من أفعال الصلاة مستعيناً بذكر اسم الله، وأنه بإعانة الله.

(وَالْحَمْدُ للهِ) على ذلك.

(وَالْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى كُلُّهَا للهِ) الجامعة لصفات الكمال،

مختصة لمن أَدَّيتُ له هذه العبادة، ثم يختم هذا التعظيم بأن يمتثل ما أمر به من إثبات التحية لله والصلاة، فيقول: (التَّحِيَّاتُ للهِ) أي: منه التحية، وهي السلامة، فهو السلام، ومنه السلام، (وَالصَّلَوَاتُ) وهي الرحمة، والإحسان.

(وَالْطَّيِّبَاتُ) من النعم الدينية والدنيوية له تعالىٰ، حاصلة من تفضله، ثم يأتي بالشهادتين متدبراً لمعناهما كما مر.

ثم ينتقل إلىٰ الصلاة المشروعة مكافأة له ﷺ علىٰ إحسانه بإرشاد العباد فيقول: (اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِ مُحَمَّدٍ) أي: أكرمهم بأكرم ما تكرم به أولياءك، (وَبَارِكْ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وعَلَىٰ آلِ مُحَمَّدٍ)؛ أي: أَبْقِ تكرمتك لهم تامة مستمرة.

(كَمَا صَلَّيْتَ، وَبَارَكْتَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيْمَ وَعَلَىٰ آلِ إِبْـرَاهِيْمَ) حيث جعلت لهم لسان صدق(١) في الآخرين.

(إِنَّكَ حَمِيْدٌ) أي: محمود علىٰ نعم الدنيا والآخرة، (مَجِيْدٌ) أي: فاعلٌ ما يوجب الحمد لك، والوصف بالمجد، وهو العز والسلطان.

ثم يريد الخروج من تلك العبادة بالتسليم فيقول: (السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ الله) ناويًا من أُمِرَ بالتسليم عليه من الملائكة،

(١)- لسان الصدق: الذكر الحسن والثناء الجميل الناشئان عن الصلاح والاستقامة، بحيث إذا أُثنِيَ عليهم لم يكن الثناء كذبًا بل يكون صدقًا؛ لأنهم كذلك وأهل لذلك.

والمؤمنين الداخلين معه في الجماعة، إن كانت فيها[1].

فإذا أدَّىٰ المصلي صلاته علىٰ هذه الكيفية؛ مِن إحضاره قلبه، وقَصْدِ تلك المعاني، يُرجىٰ له قبول صلاته، ومَنْ قُبلت صلاته فقد فاز فوزًا عظيمًا، وعظم الإثابة عليها، ويعقب الانزجار عن المعاصي المحبطة لها، والفضل بيد الله، يؤتيه من يشاء.



(١)- أي: إن كانت صلاته في جماعة.

[الفصل الأول]

[في الخلائق المهلكة التي يجب تجنبها]

في تعداد الخلائق المذمومة المهلكة التي يجب تجنبها، والـذي نذكر منها ثمانية عشر نوعًا:

[النوع الأول: الكبر]

الكبر هو: اعتقاد أن النفس تستحق مـن التعظـيم فـوق مـا يستحقه غيرها اعتقاداً من غير علم.

فيخرج اعتقاد الأنبيـاء، والملائكـة، لـذلك في حقهـم؛ فإنـه ليس بكبر.

والتكبر: ما ينضم إلى هذا الاعتقاد مما يُنبئ عنه من قـولٍ، أو فعلٍ، أو تركٍ.

وأما الكبرياء: فهي استحقاق أعـلى مراتـب التجليـل؛ فـلا يوصف بها غيره تعالى.

والكبر من القبائح الموبقة؛ لما في القرآن، والسنة، من تقبيحه، والزجر عنه وكفى بالخبر المشهور: ((لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ[1])). رواه مسلم، والترمذي.

وفي هذا الحديث: أن رجلاً قال له صلى الله عليه وآله وسلم: إن الرجل يحب أن

---

(١)- رواه الإمام أحمد بن سليمان عليه السلام في: حقائق المعرفة، وفيها: ((مثقال حبة خردل))، ومسلم [١/ ٩٣] رقم [١٤٧-(٩١)]، والترمذي [٤/ ٣٦١] رقم (١٩٩٨).

يكون ثوبه حسناً، ونعله حسناً. قال صلى الله عليه وآله وسلم: ((إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ؛ الكبر: بَطَرُ الحقِّ، وغَمْطُ النَّاسِ[١])). بَطَرُ الحق: منعُهُ وردُّه. وغَمْطُ الناس -وغَمْصُهم-: احتقارهم وازدراؤهم.

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: ((مِنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ دَرَجَةً رَفَعَهُ اللهُ دَرَجَةً، حَتَّى يَجْعَلَهُ فِي عِلِّيِّينَ، وَمَنْ تَكَبَّرَ عَلَى اللهِ دَرَجَةً وَضَعْهُ اللهُ دَرَجَةً حَتَّى يَجْعَلَهُ فِي أَسْفَلِ السَّافِلِينَ، وَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ يَعْمَلُ فِي صَخْرَةٍ صَمَّاءَ، لَيْسَ عَلَيها بَابٌ، وَلَا كُوَّةٌ، لَخَرَجَ مَا غيَّبَهُ لِلنَّاسِ، كَائِنًا مَا كَانَ[٢])). رواه ابن ماجه، وابن حبان في صحيحه.

[صور من التكبر]

ومن التكبر: الاستخفاف بمن لا يعلم فسقه، والترفع عن شيء مما يستحقه الوالد، أو الإمام، أو العالم، أو الزوج، من التعظيم؛ كترفع إبليس عما يستحقه آدم -عليه السلام-، قال الله تعالى: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ [الأعراف:١٣].

---

(١)- الترمذي [٤/ ٣٦١] رقم (١٩٩٩)، وفيها: ((ولكن الكبر من بطر الحق وغمص الناس))، وفي: مفتاح السعادة [١/ ٢٣٨٩]، وعزاه إلى الأمالي الخميسية، وفيها: ((ولكن الكبر من سفه الحق وازدرى الناس)). وسَفِهَ الحق: معناه: سَفَّهَ الحقَ؛ أي: استخفَّ به، أو معناه: جَهِلَ الحقَ فلم يره حقا، وأصل السَّفَهِ: الخفة والطيش، وقيل: الجهل، وهو قريب بعضه من بعض. [عن لسان العرب مادة: سفه].

(٢)- ابن حبان [١٢/ ٤٩٢] رقم (٥٦٧٨)، بلفظ الإمام، وابن ماجه في سننه [٢/ ١٣٩٨] رقم (٤١٧٦) إلى قوله: ((أسفل السافلين)) دون الباقي.

[في تعظيم الوالد والإمام والعالم والزوج وحدود ذلك]

تنبيه: كل مرتبة في التعظيم يستحقها هؤلاء -مع صلاحهم- إلا ما يختص به الله سبحانه كالسجود؛ لقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: ((لَو أَمَرْتُ أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ لَأَمَرْتُ الزَّوْجَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا[1]))، نبَّهَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بذلك على استحقاق الزوج على الزوجة ما دون السجود من أنواع التعظيم.

والإمام أجدر بذلك؛ للأمر بطاعته[2]، وخلافته عن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، والوالد -أيضًا-؛ لتسببه في وجود الولد وتربيته، وعظم إحسانه، والعالم كذلك؛ لهدايته وإرشاده، وعظم الانتفاع به.

فلو ترك شيئًا مما يستحقه هؤلاء، تَسَامُحًا[3] لا ترفُّعًا بحيث إنه لو اتُّهِمَ بالترفع لم يتركه لم يُعدُّ ذلك تكبرًا؛ إذ لا يتضيق عليه إلا مع التهمة.

---

(١)- شرح التجريد للإمام المؤيد بالله عليه السلام [٣/ ٢١٣]، وأصول الأحكام للإمام أحمد بن سليمان عليه السلام [١/ ٦٣٠] برقم (١٥٤٣)، وابن ماجه [١/ ٥٩٥] برقم (١٨٥٢)، والحاكم في المستدرك [٤/ ١٩٠] برقم (٧٣٢٥).

(٢)- في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ [النساء٥٩].

(٣)- تركه تسامحا: أي تركه لاعتقاده، أو ظنه، أن لا تضييق عليه في ذلك وأن له فيه متسعا. ومنه ظن يونس عليه السلام إذ ذهب مغاضبا، في قول تعالى: ﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء٨٧].

[صور أخرى من التكبر]

ومنه: الترفع عن طلب العلم من الأصغر سناً، والأقل جاهاً. وعن الإجابة بـ «لا أدري»، في موضع عدم العلم.

ومنه: الزهو وهو: التبختر في المشي، ونحوه، وجرُّ الذيل(١) بَطَرًا.

[أمور يحسن فيها الزهو]

ويحسن الزهو من الزوجة لقصد التحسين في عين زوجها، وقد يحسن من الرجل، كَـ: في حال لقاء العدو؛ لقوله ﷺ - وقد تبختر أبو دجانة عند بروزه للقتال-: ((إن هذه لمشية يبغضها الله ورسوله، إلا في مثل هذا الموطن(٢))). أو كما قال.

[صور أخرى من التكبر]

ومنه: تكلف التصدر(٣) في المجالس، واختيارها ترفعًا، وطلبًا لمرتبة في التعظيم لا يستحقها، والترفع عن مجالسة المساكين من الأتقياء.

---

(١)- التبختر: التمطط بالجسم أثناء المشي. جرُّ الذيل: سحب طرف الثوب المتصل بالأرض عند المشي.

(٢)- الطبراني في الكبير [٧/ ١٠٤] رقم (٦٥٠٨)، والمتقي الهندي في كنز العمال [٤/ ٣١٧] رقم (١٠٦٨٥).

(٣)- التصدر في المجالس: طلب الصدر فيها والجلوس، وصدر المجلس: أعلاه، وصدر المجلس: المحراب.

[أمور ليست من التكبر]

لا عن مجالسة الأرذال، والسقط، المتضمخين[١] بالقبائح، فحَسَنٌ. ولا عن الدخول في مهنة يسترذل صاحبها في تلك الجهة كالحياكة، ونحوها، في بعض النواحي؛ فـ((إِنَّ اللهَ يُحِبُّ مَعَالِيَ الأُمُورِ وَأَشْرَافَها، وَيَكْرَهُ سَفْسَافَها[٢])).

وقيل: ليس منه -أيضًا- التَّحَشُّم[٣] عن دخول الأسواق، وخدمة نفسه وأهل بيته، حيث يجد من يخدمه، ويخشى بذلك استخفاف الجهلة به، لا سيما حيث في حطِّ مرتبته مفسدة، كَوَهنٍ يلحقه في أمره بمعروف، أو نهيه عن منكر؛ فإن وجد من نفسه تَرْكَ ذلك تكبراً، لا لهذه المصلحة، لزمه كسع[٤] نفسه، وإهانتها بفعل ذلك. وكذلك إن خشي الاقتداء به من جاهل،

---

(١)- الأراذل: جمع رَذْل، وهو الدون من الناس، أو السيئ الرديء المرغوب عنه لرداءته. والسَقَطُ من الناس: أوباشهم ، وهم الأخلاط المحتقرون، والمتضمخ: مَن تلطَّخَ بالشيء مع الإكثار منه، والمعنى: أن فاعل القبائح كأنه قد لطَّخ جسده بها حتى غطَّته، فغطى شره خيره، فلا يظهر منه إلا الشر.

(٢)- السيد العلامة محمد بن يحيى حفظه الله تعالى في المختار من صحيح الأحاديث والآثار [١٠٣٥]، عن الأمالي الخميسية، والدولابي في الذرية الطاهرة عن الحسن بن علي [٩١] رقم (١٦٢)، والطبراني في الأوسط [٣/ ٢١٠] رقم (٢٩٤٠)، والحاكم في المستدرك [١/ ١١١] رقم (١٥١).

(٣)- التحشم: الاستحياء والغضب.

(٤)- الكَسْعُ: الضرب باليد أو الرِّجْل على دبر إنسان أو شيء. [لسان]. والمراد بكسع النفس: أن يردَّها عن غيِّها بنوعٍ من الإهانة.

يترفع عن ذلك لا لمصلحة، بل استعظامًا لنفسه.

قلت: وفي هذه الجملة نظر؛ ووجهه: أن الله سبحانه أخبر بسقوط مرتبة نبيئه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عند المشركين بسبب دخوله الأسواق(١)، ولم يكن ذلك حاملاً له على ترفعه عنه، مع أنه أحوج الناس إلى عدم سقوط المرتبة(٢)؛ لأن الجهلة لا اعتبار بهم، ولا نظر إليهم.

[صور لا يقبح فيها التكبر والضابط فيها]

تنبيه: ليس بقبيح التكبر على ذوي التكبر؛ لقوله تعالى: ﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة١٢٣]، وقول عليٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: (التَّكَبُّرُ عَلَى ذَوِي التَّكَبُّرِ تَوَاضُعٌ عِنْدَ اللهِ).

قيل: ولا منه مدح النفس بما فيها لا على وجه الافتخار، بل لإظهار نعمة الله عليها، أو ليُهتدى بهديها، أو لئلا يستخف بها، ما لم يصدر ذلك عن الاعتقاد المذكور في حقيقة الكبر، والأعمال بالنيات.

---

(١)- في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً﴾ [الفرقان٧].

(٢)- في (أ) بعد هذا: «اللهم إلا أن يقال: لا اعتداد باعتراضهم لأنهم لا يزالون طاعنين عليه مطلقاً سواء تحشم أم لا، فلا إشكال»، وفي (ب): «إلا أن الجهلة لا اعتبار بهم ولا نظر إليهم».

وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: ((أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ[١])).

وصَدَرَ مثل هذا عن عليٍّ -عليه السلام-، حيث قال: (لو ثُنِيَتْ لي الوِسَادَةُ..)[٢] الأثر، وعن كثير من الأئمة، وعلماء الأمة.

---

(١)- بعض حديث في صحيفة الإمام الرضا عليه السلام [٤٧٧]. وفي لوامع الأنوار للمولى مجد الدين المؤيدي عليه السلام [١/ ١٣٦]: ((أنا سيد ولد آدم وعليٌّ سيد العرب)) وعزاه إلى أبي نعيم. قلت: في حلية الأولياء [١/ ٦٣]. وممن رواه بلفظ اللوامع: الحاكم في المستدرك [٣/ ١٣٣] رقم (٤٦٢٥) وصححه، والطبراني في الأوسط [٢/ ١٢٧] رقم (١٤٦٨) وفي الكبير [٣/ ٨٨] رقم (٢٧٤٩)، وابن المغازلي الشافعي في المناقب [١/ ٢٨٤] رقم (٢٥٩)، وابن بهادر الزركشي الشافعي في: اللآلئ المنثورة في الأحاديث المشهورة (التذكرة في الأحاديث المشتهرة) [١/ ١٦٢]، والهيثمي في مجمع الزوائد [٩/ ١١٦] رقم (١٤٦٨٢)، وابن حجر العسقلاني في إتحاف المهرة [٣/ ٤٩١] رقم (٣٥٤٦).

(٢)- رواه الإمام الموفق بالله عليه السلام في الاعتبار وسلوة العارفين [٤٥٢] رقم (٤٩٩) بلفظ: (والله لو كسرت لي الوسادة ثم جلست عليها لقضيت بين أهل التوراة بتوراتهم، وبين أهل الإنجيل بإنجيلهم، وبين أهل الزبور بزبورهم، وبين أهل الفرقان بفرقانهم، حتى يرجعوا إلى اللّه عز وجل، والله ما من آية نزلت في بر ولا بحر ولا سماء ولا أرض ولا ليل ولا نهار إلا وأنا أعلم متى نزلت، وفي أي شيء نزلت، وما من رجل من قريش جرت عليه المواسي إلا وأنا أعلم أي آية نزلت فيه أتسوقه إلى جنة أم إلى نار)، وفي أمالي الإمام أحمد بن عيسى عليه السلام [٢/ ٣٩٦] أخصر منه. وروى البخاري في التاريخ الكبير [٨/ ١٦٥] رقم (٢٥٧٠): عن علي قال: (ما فِي القرآن آية إلا أعلم أين أنزلت فِي سهل، أو جبل، أو بليل، أو بنهار)، وروى ابن عساكر في تاريخ دمشق [٢٧/ ١٠٠]: (سلوني عن كتاب الله عز وجل فإنه ليس من آية إلا وقد عرفت بليل أنزلت، أو بنهار، أو في سهل، أو جبل). وثَنْيُ الوسادة وكسرها: وضع بعضها على بعض فترتفع فيجلس عليها كما يُصنع للأمراء والأكابر، وهو كناية عن التمكن في الأمر.

وأما قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ﴾ [النجم٣٢]، فالمراد: لا تحكموا لها بالطهارة من كل ذنب.

ومن المحسنات لهذا القبيل إرهاب أعداء الله، وإيغار صدورهم.

ولا من التكبر -أيضًا-: تهيئة الإمام، بقيام الخدام علىٰ رأسه[١]، وضرب الحجاب علىٰ بابه[٢]، واتخاذ مَن يُلبسه نعليه، وينزعهما عنه، وعدم المنع من تقبيل يديه، لقصد المصلحة في ذلك كله؛ إذ قد ورد مثله عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، والأعمال بالنيات.

[النوع الثاني: العُجْب]

والعجب: هو مسرة، بحصول أمرٍ، يصحبها تطاول لأجله، علىٰ من لم يحصل له مثله، بقولٍ، أو فعلٍ، أو تركٍ، أو اعتقاد.

وقد ورد الشرع بتحريمه، وانعقد الإجماع علىٰ حظره، وقيل فيه: إنه من المحبطات.

وكفىٰ في تفضيع شأنه بتوبيخ الله جند الحق علىٰ الإعجاب بما

(١)- روي في السيرة في عمرة الحديبية أن المغيرة بن شعبة كان واقفا علىٰ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ حين بعثت قريش إليه عروة بن مسعود الثقفي الذي كان في حال خطابه لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يتناول لحيته الكريمة، فقال المغيرة: اكفف يدك عن وجه رسول الله قبل أن لا تصل إليك فقال عروة: ويحك ما أفظك وأغلظك. فتبسم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ. وهذا يدل علىٰ جواز قعود الإمام وبعض الجند قائم علىٰ رأسه. ذكره في البحر الزخار: كتاب الدرة المنيرة في الغريب من فقه السيرة.

(٢)- كأنس بن مالك الذي كان حاجبا له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

هو حاصل لهم من كثرتهم، حيث قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ الآية. [التوبة٢٥].

وبقوله ﷺ: ((بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي فِي حُلَّةٍ تُعْجِبُهُ نَفْسُهُ، مُرَجِّلٌ رأسَهُ، يَخْتَالُ في مشيته، إِذْ خَسَفَ اللهُ بِهِ، فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِي الْأَرْضِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ[(١)])). رواه البخاري، ومسلم. مُرَجِّلٌ: بمعنى: مُـمَشِّط.

نعم، لا قبح في نفس المسرة؛ إذ لا تندفع؛ إنما القبيح ما يصحبها، مما يوهم التطاول والافتخار على من ليس مثله فيما حصل له، أو أن يعتقد أنه يستحق لأجل ما حصل له تعظيمَ النـاس إيـاه، أو منزلـةً رفيعة عند الله، على القطع؛ فيعود إلى معنى الكبر.

[لا اعتبار لما يحصل به الإعجاب في قبح العُجب]

تنبيه: ولا فرق بين أن يكون ذلك الأمر الحاصل به الإعجاب اضطرارياً كجمال أو فصاحة، أو كثرة عشيرة أو مال أو بنين، أو اختياريًّا[(٢)] كـ:كثرة علم، أو عبادة، أو إعطاء، أو إقدام؛ فإن العُجُب بذلك كله قبيح شرعًا، ولا نعرف فيه خلافًا.

---

(١)- البخاري [٧/ ١٤١] برقم (٥٧٨٩)، ومسلم [٣/ ١٦٥٣] برقم [٤٩-(٢٠٨٨)]. يتجلجل: يغوص في الأرض، والجلجلة: حركة مع صوت.

(٢)- الاختياري: ما حصل فيك (ككثرة العلوم المكتسبة) أو لك (ككثرة عبادة) باختيارك، والاضطراري : ما حصل فيك (كالعلوم الضرورية والجمال) أو لك (ككثرة المال أو البنين) ولم يقف على اختيارك.

[النوع الثالث:] الرياء

لغةً: فعلُ أمرٍ مستحسنٍ، ليراه غيره عليه، طلباً للثناء، أو غيره من تورية[١]، أو نحوها.

وشرعًا: فعلُ طاعةٍ، أو تركُ معصيةٍ، لحصولِ غرضٍ دنيوي، ثناء أو غيره.

ولا فرق بين أن يريد مع ذلك التقرب إلى الله تعالى، أو لا؛ بدليل قوله صلى الله عليه وآله وسلم، لمن سأله عن قصد مجموع الأمرين: ((لَا شَرِيكَ للهِ فِي عِبَادَتِهِ)). وقال رجل: يا رسول الله، إني أقف الموقف أريد وجه الله تعالى، وأريد أن يرى الناس موطني. فلم يردّ عليه صلى الله عليه وآله وسلم، حتى نزل قوله تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[٢] [الكهف:١١٠].

والقرآن العظيم مصرح بتحريمه، وتوبيخ صاحبه، وكذلك السنة النبوية.

والأحاديث في ذلك واسعة؛ كقوله صلى الله عليه وآله وسلم: ((مَنْ سَمَّعَ

---

(١)-التورية: الستر، ولعل المعنى: أن الإنسان يطلب بفعله الأمرَ سَتْرَ شيءٍ لا يريده أن يظهر.

(٢)- المختار من صحيح الأحاديث والآثار للسيد العلامة محمد بن يحيى حفظه الله تعالى[٩٨٨] بلفظ: جاء رجلٌ إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: يا رسول الله : إني أعمل العمل أسره، فيطلع عليه، فيعجبني، فنزلت: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[الكهف١١٠]، وعزاه إلى الأمالي الخميسية عن أمير المؤمنين -صلوات الله عليه- والحاكم في المستدرك [٢/ ١٢٢] رقم (٢٥٢٧).

سَمَّعَ اللهُ بِهِ، ومَنْ يُرَائِي يُرَائِي اللهُ بِهِ[(١)])). رواه البخاري.

وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: ((مَنْ طَلَبَ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الآخِرَةِ طَمَسَ اللهُ وَجْهَهُ، وَمَحَقَ ذِكْرَهُ، وأَثْبَتَ اسْمَهُ في النَّارِ[(٢)])). رواه الطبراني.

والإجماع منعقد عليه.

[في الإخلاص وما يشترط فيه وما لا يشترط]

تنبيه: ليس من شرط الإخلاص في العبادة كراهة الثناء عليها، وكراهة أن يطلع عليها بل الشرط ألا يريدهما[(٣)] فالإخلاص: فعل الطاعة، أو ترك المعصية، للوجه المشروع، غيرَ مريدٍ للثناء على ذلك.

نعم، فإن فَعَلَ الطاعة، أو تَرَكَ المعصية، غيرَ مريدٍ أن يراها غيره فيثني عليه، فهو مخلص قطعاً، سيما إذا اجتهد في الكتمان،

---

(١)- روى الإمام المرشد بالله عليه السلام في الأمالي الخميسية [٢/ ٤٣٠]: ((من سمع الناس بعلمه، سمع الله به سامع خلقه، وحقره وصغره))، والموفق بالله -عليه السلام- في الاعتبار [١٢٦]: ((إن مثل من يُعَلِّم الناس الخير وينسى نفسه، كمثل المصباح الذي يضيء للناس ويحرق نفسه، ومن راءى الناس بعلمه راءى اللّه به يوم القيامة، ومن سمع الناس بعلمه سمع اللّه به في يوم القيامة))، والبخاري [٨/ ١٠٤] رقم (٦٤٩٩) ومسلم [٤/ ٢٢٨٩] رقم [٤٧-(٢٩٨٦)].

(٢)- رواه في مفتاح السعادة [١/ ٢٦٥٦] وعزاه إلى الأمالي الخميسية. وأخرجه الطبراني في الكبير [٢/ ٢٦٨] رقم (٢١٢٨)، والمتقي الهندي في كنز العمال [٣/ ٢٢٧] رقم (٦٢٧٥) وعزاه إلى أبي نعيم. محق ذكره: أذهب ذكره.

(٣)- يعني: أن المطلوب أمران: ألا تريد الثناء على الطاعة، وألا تريد أن يطلع عليها غيرك، وليس المطلوب أن تكره الثناء وتكره الاطلاع عليها.

فمن البعيد أن يجتهد فيه مع إرادة الاطلاع، فلو أنه خطر بباله محبة أن يطلع عليها، مع الاجتهاد في الكتم، فليس برياء؛ لأن الوساوس، وشهوات النفس، لا يمكن دفعها[1]؛ بل الواجب المدافعة، وقد دافع بتحري الكتم، هذا ما لم يقع منه سبب الاطلاع كرفع صوت بتلاوة ونحوه؛ فإن فَعَلَ فرياء.

فائدة: [حالات يحسن فيها إظهار الطاعة لمصلحة]

وقد يحسن من العبد إظهار الطاعة لمصلحة: كأن يكون ممن يُقتدىٰ به، فيكون الإظهار لذلك كالأمر بالمعروف.

أو كأن يُتهم برذيلة، وهو منها بريء، وبإظهار الطاعة تزول التهمة؛ فإظهارها حينئذٍ كالنهي عن المنكر.

وكأن يكون في الإظهار صحة توكيد توبته عند من اطلع منه علىٰ فعل معصية، وهذا لاحق بدفع التهمة.

وكأن يكون في الإظهار نفوذ كلمته فيما يأمر به، وينهىٰ عنه، وقرب الناس إلىٰ إجابة دعوته؛ لإحياء حق، أو إماتة باطل.

وكأن يكون في تركه الفعل وترك إظهاره نسبته إلىٰ التقصير والاستهانة بالخيرات، كـ: لو دخل جماعةٌ مسجداً، فتطوعوا بتحية المسجد، فإنه يحسن منه الدخول في مثل فعلهم، دفعًا

(١)- قوله عليه السلام: «لا يمكن دفعها»، أي: لا يمكن إزالتها بالكلية، بحيث لا يبقىٰ شهوة ولا وسواس، وليس معناه: لا يمكن أن تدافعها فتصرفها أو تضعفها أو توجهها إلىٰ ما يجوز، فهذا ممكن، والتكليف إنما هو في الصرف والحرف.

لتلك التهمة، قيل: ولا يبعد في أنه يجب ؛ لقوله صلى الله عليه وآله وسلم: ((من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقفنَّ مواقف التهم[(١)]))، ونظائر ما ذكرنا كثيرة، والأعمال بالنيات[(٢)].

[صور من الرياء]

ومن الرياء: أن يوهم أنه فعل فعلاً ولم يفعله، قاصداً الحمد عليه، وقد توعد الله على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ﴾ الآية. [آل عمران١٨٨]. فلو أحب ذلك ولم يوهم أنه فعله؛ فالأقرب قبحه؛ لأن فيه محبة الكذب، وما في حكمه.

ومنه: أن يُرِيَ أنه يأكل قليلاً؛ ليُوصفَ بالقنوع والشهامة؛ فقد ورد أن المرائي في أكله كالمرائي في دينه، فلو تركه إيثارًا للغير، ولئلا يوصف بكثرة النَّهَمِ[(٣)]؛ كأن يرفع أصحابه قبل شبعه، فلا حرج في ذلك.

---

(١)- رواه والدنا الإمام يحيى بن حمزة عليه السلام في الديباج الوضي [٦/ ٢١٦٥]، والزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف [٢/ ١٦٦] برقم (٦٣١).

(٢)- وفي علامة المرائي التي ينبغي أن لا تغيب عن بال الواحد منا ما قاله أمير المؤمنين – صلوات الله عليه-: (للمرائي أربع علامات: يكسلُ إذا كان وحده، وينشط إذا كان في الناس، ويزيد في العمل إذا أُثْنِيَ عليه، وينقص منه إذا لم يُثن عليه). [شرح النهج:٢/ ١٨٠، واليعقوبي في تاريخه [٢/ ٢٠٧] أوردها ثلاثا، والثالثة: (ويحب أن يحمد في جميع أموره)].

(٣)- الإيثار: أن تقدِّم غيرك بالشيء، والاستئثار بالشيء: أن تخصَّ نفسك به دون غيرك، والنهم: زيادة الاشتهاء للطعام.

[النوع الرابع:] المباهاة

نوع من الرياء مخصوص وهو: أن يجتهد الإنسان في إظهار بعض الخصال التي يَشْرُفُ بها عند الناس، طلباً للشرف عندهم، والتعظيم؛ كالمباهاة(١) بحلق التدريس وكثرة أهلها، والانتصاب لها حيث يراه الناس، ابتغاءً للرفعة عندهم، وغرض الجاه فيهم، لغرضٍ يعود إلى الدنيا، لا إذا كان في ذلك غرض ديني.

وكفى في الزجر عن ذلك بالخبر المشهور: ((من سمَّع بعلمه سمَّع الله به سامع خلقه يوم القيامة، وحقره وصغره))، أو كما قال.

[النوع الخامس:] المكاثرة

نوع من المباهاة، تختص بالأعيان(٢)؛ كالمال، والبنين، والعشيرة، والأتباع، ولا خلاف في قبح هذين الخلقين .

ومن الأدلة قوله تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر١]، وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: ((ما أخشى عليكم الفقر، ولكن أخشى

(١)- المباهاة: المفاخرة، وهي من الفخر وهو: التمدح والتعظم والتكبر بالخصال.

(٢)- المكاثرة تختص بالأعيان أي: ما له جِرْمٌ (الجسم)، بينما المباهاة تختص بالخصال، أي: الصفات والخصائص (العَرَض).

عليكم التكاثر، وما أخشى عليكم الخطأ، ولكن أخشى عليكم التعمد[١]))، رواه أحمد.

[في التكلف في الكلام متى يقبح ومتى يحسن]

تنبيه: من المباهاة: التفيهق في المحافل، بتكلف الكلام، ونوادر المسائل؛ طلبًا للرفعة.

ويدل على تحريمه قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: **((ألا أخبركم بأبغضكم إليَّ، وأبعدكم مني مجلسًا يوم القيامة، أسوأكم أخلاقًا، الثرثارون، المتفيهقون[٢]))**.

أما لو قصد بتَوَخِّي[٣] الكلام البليغ أن يقع في النفوس، ويؤدي المعنى المراد بكماله، لا ليقال إنه بليغ، فلا كلام في

---

(١)- أحمد في مسنده [١٣/ ٤٤٠] برقم (٨٠٧٤)، والحاكم في المستدرك [٢/ ٥٨٢] برقم (٣٩٧٠).

(٢)- روى الإمام أبو طالب عليه السلام في الأمالي [٤٤٨] برقم (٥٨٥): ((إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي مَجْلِساً فِي الْجَنَّةِ أَحْسَنُكُمْ خُلُقاً، وَإِنَّ أَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَنْزِلاً الثَّرْثَارُونَ الْمُتَشَدِّقُونَ الْمُتَفَيْهِقُونَ))، قَالَ: قُلْنَا يَا رَسُولَ الله أَمَّا الثَّرْثَارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ فَقَدْ عَرَفْنَاهُمْ، فَمَنِ الْمُتَفَيْهِقُونَ ؟ قَالَ: ((الْمُتَكَبِّرُونَ))، قُلْنَا: يَا رَسُولَ الله أَمِنْ الكِبْرِ الدَّابَّةُ نَرْكَبُهَا وَالْحُلَّةُ نَلْبَسُهَا، وَالطَّعَامُ نَصْنَعُهُ لِلاخْوَانِ؟، قَالَ: ((لاَ، وَلَكِنْ مَنْ سَفَّهَ الْحَقَّ وَغَمَصَ النَّاسَ))، ورُوي بألفاظ مختلفة في: سنن الترمذي [٤/ ٣٧٠] رقم (٢٠١٨)، ومسند أحمد [٢٩/ ٢٦٧] رقم (١٧٧٣٢). وتفيهق في كلامه: تَكَلَّفَ التوسَّعَ والتعمق فيه تكبرا.

(٣)- التوخي: قصْدُ التحري للصواب، أو للحق.

حسنه، بل في ندبه، قيل: وفي قوله ÷: ((إن من البيان لسحرًا[(١)])) -أي: يأخذ في القلوب ويعمل فيها عمل السحر- تنبيهٌ على أن توخي أبلغ الفصاحة لهذا القصد مندوب.

فائدة: [حسن فعل ما صورته صورة المباهاة لمصلحة]

قد يحسن من العالم الخامل ما صورته صورة المباهاة، وهو أن يعتني بإظهار علمه، بنحو: أن يتكلم في المجامع بالمسائل الغامضة، ويَتَظَهَّرَ[(٢)] بالتدريس، ونحو ذلك؛ ليقصده الناس، فيقع الانتفاع بعلمه، والاستفادة منه؛ لأن هذا نوع من الأمر بالمعروف، ومنه قول يوسف صلى الله عليه وآله: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف٥٥].

وكذلك يحسن فعل ما ذكر لدفع الاستخفاف به، وحطه عن درجته التي يستحقها؛ لأنه نوع من النهي عن المنكر، فلا بأس بطلب القدر المستحِقِّ هو لهُ من التشريف؛ لما في تركه من الاستخفاف المحرم، ودفع المحظور واجب؛ ولهذا أسقطت عدالة من حطَّ مرتبة نفسه؛ بنحو: أكلٍ في السوق، وبولٍ في السكك، ومجالسةِ أولي الرذالة.

---

(١)- رواه الإمام الحجة/ مجدالدين المؤيدي عليه السلام في لوامع الأنوار بسنده إلى سلسلة الإبريز [١/ ٤٨٦]. والبخاري [٧/ ١٩] برقم (٥١٤٦)، وأبو داوود [٤/ ٣٠٢] برقم (٥٠٠٧).

(٢)- يتَظَهَّرُ بالشيء: يستعين به، من المظاهرة أي: المعاونة.

قلت: الخطر في مثل هذا عظيم، وقلَّ من يعرف ما في هذا الشأن من دقائق البوائق[١]، وقد يُلَبِّسُ[٢] الشيطان على الإنسان، فيخيل إليه أنه يفعل الفعل على الوجه الحسن، وهو في الحقيقة على الوجه المستقبح؛ لخبث الطبائع، وطموح الجبلة والغرائز إلى طلب الشرف والرفعة، فالحذر من الاغترار.

[في إظهار العالم علمه لغرض مواساته وسد حاجته]

تنبيه: لو قصد بإظهار علمه بعث الناس على مواساته بما يقوم بعائلته، ويسد به فاقته، من الحقوق التي تسوغ له، أو من خالص الأموال، فالأقرب التحريم؛ لانخراطه في سلك التكسب بالطاعات، ويحتمل الجواز؛ إذا تعرى عن قصد الشرف كتجويز الانتصاب للقضاء لما يعود بسببه بما يقوم بمؤنته والأول أظهر.

[صور من المكاثرة]

ومن المكاثرة: التفاخر بالآباء، والأولاد، والأجداد، والأقارب، الذين شَرُفُوا بالأمور الدنيوية، قال تعالى: ﴿إِنَّ

---

(١)- البوائق: جمع بائقة، وهي الداهية. ودقائق البوائق: ما غَمُضَ منها وخَفِيَ فلا يكاد يفهمه إلا الأذكياء.

(٢)- التلبيس: خلط الأمر بغيره.

أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات١٣]، وقال ﷺ: ((لَيَنْتَهِيَنَّ أقوام يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا، إنما هم فحم جهنم، أو لَيَكُونُنَّ أهون على الله من الجعل الذي يدهده الخراء بأنفه، إن الله أذهب عنكم عبية الجاهلية، وفخرها بالآباء، إنما هو مؤمن تقي، أو فاجر شقيّ، الناس بنو آدم، وآدم -عليه السلام- خلق من تراب[1])). رواه أبو داوود، والترمذي. والعَبِّيَةُ: الكبر، والفخر، والنخوة.

قيل: وأما من شَرُفَ بالدين فلا بأس بالافتخار به؛ إذ فيه رفع لمنار الدين، ومنه: قوله ﷺ: ((أنا ابن الذبيحين[2])).
أما الافتخار بكثرة الرجال عدداً فمكاثرة قطعاً.

ومن المكاثرة: رفع البنيان، والزخرفة فوق القدر المحتاج إليه؛ قصداً للتطاول على من لم يتمكن من مثل ذلك، فلو قصد مجرد التلذذ، أو التزين والتجمل بذلك- قيل: فلا بأس فيه؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ..﴾ الآية [الأعراف٣٢]، ولقوله تعالى: ﴿لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل٨]، و[قوله تعالى]: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾ [النحل٦]، ونحوه.

---

(١)- أبو داوود [٤/ ٣٣١] برقم (٥١١٦)، الترمذي [٦/ ٢٢٨] برقم (٣٩٥٥).

(٢)- المصابيح في السيرة لأبي العباس الحسني عليه السلام [١٩١]. والسيوطي في معترك الأقران في إعجاز القرآن [٣/ ٨٤] والحاكم في المستدرك [٢/ ٦٠٤] برقم (٤٠٣٦).

ويُحمل ما ورد من الزجر عن رفع البنيان على ما قُصِدَ به المكاثرة، والمفاخرة، لا ما كان لمجرد التجمل؛ فقد فعله كثير من الصحابة، والتابعين، وصالحي العلماء كالزبير، وابن المبارك، ومحمد بن الحسن؛ لكن، لا شك أن الأولى الترك، خاصة ممن يُقتدى به؛ فإن ذلك من بواعث دواعي الحرص على الدنيا وملاذها، فيقع الاشتغال عن الآخرة، والسعي لها، وهي البغية المقصودة، ولظواهر أحاديث تقتضي التحريم، وأقل أحوالها الكراهة.

[النوع السادس:] الحسد

هو كراهة وصول النعم أو بقائها لا لوجه يقتضي ذلك من عداوة، أو غيرها.

ومن ذلك: الحسد على ارتفاع شأن الغير أو حسن الثناء عليه؛ فإنه من النعم.

وهو محرم شرعًا بالإجماع، وبالنص كقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: ((**إياكم والحسد، فإنه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب**[1])). رواه رزين، وأبو داوود. وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: ((**ليس مني ذو حسد، ولا نميمة، ولا كهانة، ولا أنا منه**[2])). رواه الطبراني.

---

(١)- رواه الإمام أحمد بن سليمان عليه السلام في حقائق المعرفة بلفظ: ((الحسد يأكل الإيمان كما تأكل النّار الحطب))، والمنصور بالله عليه السلام في شرح الرسالة الناصحة [١/ ٥٤٥] دون: ((إياكم والحسد))، وأبو داوود [٤/ ٢٧٦] برقم (٤٩٠٣)، وابن ماجه [٢/ ١٤٠٨] برقم (٤٢١٠).

(٢)- كنز العمال للمتقي الهندي [٣/ ٤٦٢] برقم (٧٤٤٥) وعزاه إلى الطبراني.

[في كيفية مدافعته]

ومدافعته واجبة، وتكون باستحضار:

- ما ورد به الشرع من تقبيحه، والترهيب لصاحبه.

-وما ورد في تهجينه وذمه كقول بعض العلماء: الحسود غضبان على من لا ذنب له.

ومنه: تمني كون الذي للمحسود له، لا سؤال الله أن يفعل له كما فعل للمحسود؛ ودليل الطرفين: ﴿وَلاَ تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ اللَّهُ [بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ]...﴾ الآية. ﴿وَاسْأَلُواْ اللَّهَ مِن فَضْلِهِ...﴾ الآية. [النساء٣٢].

ومحبة أن يحصل له مثله تسمى: الغيرة، وقد روي عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: ((الغيرة من الإيمان[١])).

[في كونه بالقلب وباللسان]

تنبيه: الحسد قد يكون: بالقلب، كما تقدم.

-وبالقول كالوضع[٢] من المحسود، بإنكار ما ينسب إليه من معالي الأمور، وكالتنبيه على مثالبه وهفواته المغفول عنها، لا لمصلحة، بل قصداً لوضعه، وحطًّا لمرتبته التي حسده عليها،

---

(١)- معمر بن راشد في جامعه [١٠/ ٤٠٩] رقم (١٩٤٢٠)، والشهاب القضاعي في مسنده [١/ ١٢٣] برقم (١٥٤)، والبيهقي في شعب الإيمان [١٣/ ٢٦٠] برقم (١٠٣٠٨).

(٢)- الوضع: ضد الرفع، ووضع من فلان: حطَّ من درجته. [لسان].

هكذا قيل، والأولى: أن يجعل ما كان بالقول مما ذكر من مقتضيات الحسد، لا قسمًا منه؛ فإنه من أعمال القلوب خاصة، والله أعلم.

[صور من الحسد]

ومنه: تَكَلُّفُ الطعن على كلام المحسود من العلماء في مؤلفاته وفتاويه، وتقبيح صناعته فيها، لا لمصلحة.

ومنه: ترك التعريف بما يعرفه من محاسن المحسود ومكارمه، في مقامٍ يقتضي ذلك.

ومنه: إيراد الملغزات(١) عليه؛ طلبًا لغلطه.

وعلى كثرة وقوع الحسد بين حملة العلم، ودخول الشيطان بينهم، من هذه الجهة، نَبَّهَ الخبرُ الوارد في كتاب الفردوس -والله أعلم بصحته- وهو: ((لا تقبلوا أقوال العلماء بعضهم على بعض، فإن حسدهم عدد نجوم السماء، وإن الله لا ينزع الحسد من قلوبهم حتى يدخلهم الجنة(٢))).

---

(١)- الملغزات: هي المسائل الغامضة، مِن: أَلْغَزَ في كلامه: إذا عَمَّى مرادَهُ فيه.

(٢)- ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله [٢/ ١٠٩١] برقم (٢١٢٥)، موقوفا على ابن عباس -رضي الله عنهما- بلفظ: «خُذُوا الْعِلْمَ حَيْثُ وَجَدْتُمْ، وَلَا تَقْبَلُوا قَوْلَ الْفُقَهَاءِ بَعْضِهِمْ فِي بَعْضٍ؛ فَإِنَّهُمْ يَتَغَايَرُونَ تَغَايُرَ التُّيُوسِ فِي الزَّرِيبَةِ»، وكذا في الإحياء للغزالي [١/ ٤٥].

[النوع السابع:] الغل

هو، والحقد، بمعنى واحد؛ وهو متوسط بين الحسد والعداوة، يرجع إلى إرادة نزول الضرر بالغير، أو فوت نفع عنه:

فالحسد: كراهة المنفعة.

والغل: إرادة نزول المضرة، أو فوت المنفعة.

والعداوة: الإرادة المذكورة، مع العزم على إنزال الضرر بالعدو، إن أمكن. هكذا قيل.

ودليل قبحه: ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلّاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحشر١٠]، ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ [الأعراف٤٣]، ونحو ذلك.

[النوع الثامن:] ظن السوء

هو أن تظن بأخيك المؤمن فعلًا محرمًا، أو إخلالًا بواجب، من دون إقرار منه، ولا أمارة يوجب الشرع العمل بها، كشهادة عادلة، ونحو ذلك.

وتحريمه معلوم قطعًا، ومن أدلته: ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات١٢]، وهي مجملة، بيَّنها قوله تعالى: ﴿لَوْلَا جَاؤُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء﴾ [النور١٣]، ﴿وَاسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ﴾ [البقرة٢٨٢].

وعن بعض الحكماء: إياك وظن السوء، فإنه لن يدع بينك وبين صديقك صلحاً.

والإجماع منعقد على قبح هذا الظن، وعلى وجوب التأويل ما أمكن، ويدل على وجوبه قوله تعالى: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ﴾ الآية [النور١٢]؛ إذ لا يمكن ظن الخير بغير تأويل، وما ورد عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مما معناه أنه إذا رأى المؤمن أخاه على خصلة مستنكرة تأول له إلى نيف وسبعين تأويلًا.

وهو أحد موجبات الغل، ومدافعته واجبة، فإن أَلَحَّ القلب، وأبى أن ينتهي عنه، وجبت عليه مباحثة مَن ظن به السوء؛ ليحصل أحد المخالص:

- إما اعترافه وتوبته، فيهديه الله على يديه، وهو خير له مما طلعت عليه الشمس.
- وإما اعترافه وتمرده، فيخرج عن خطر الظن عن غير تحقيق إلى العلم اليقين الذي لا خطر فيه.
- وإما انكشاف كذب تلك الأمارة الموجبة لسوء الظن.

وإذا اعتذر المظنون به السوء، وأنكر فليس يسوغ تكذيبه إلا بيقين، فالمؤمن إذا قال صَدَق، وإذا قيل له صَدَّق؛ ويدل عليه: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة٦١].

[في إقالة عثرة المؤمن وستر زلته]

تنبيه: على المؤمن إذا عثر من أخيه على زلة أن يسترها، ولا يذيعها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية. [النور١٩].

وعن القاسم عليه السلام: «اصحب من صحبت بالستر لعورته، والإقالة لعثرته، ولا تطل معاتبته إذا هفا، ولا جفوته إذا جفا، فإن زلَّ فأَقِلْهُ، وإن قصَّر فاحتمله[(١)]».

وإن تمرد عن التوبة فعليك أن تُحَذِّرَ منه؛ للخبر: ((اذكروا الفاسق بما فيه، لكي يحذره الناس[(٢)]))، وعليه يحمل: ((لا غيبة لفاسق[(٣)])).

[النوع التاسع:]

موالاة أعداء اللّه، ومعاداة أولياء اللّه

معنى موالاة الغير: أن تحب له كل ما تحب لنفسك، وتكره له كل ما تكره لنفسك.

ومعنى المعاداة: أن تريد إنزال المضرة به، وصرف المنافع عنه، وتعزم على فعل ذلك متى قدرت عليه، خاليًا عن الصوارف[(٤)].

---

(١)- كتاب المكنون [مجموع كتب ورسائل الإمام القاسم الرسي].

(٢)- كنز العمال للمتقي الهندي [٣/ ٥٩٥] رقم (٨٠٧٠) بلفظ: «الفاجر» بدل الفاسق، وعزاه إلى: ابن أبي الدنيا في ذم الغيبة، والحكيم الترمذي في نوادر الأصول، وابن عدي، والحاكم في الكنى والشيرازي في الألقاب، والطبراني [١٩/ ٤١٨]، رقم (١٠١٠)، والعقيلي [١/ ٢٠٢]، وابن عدي [٢/ ١٧٣] ترجمة (٣٦١)، والبيهقي [١٠/ ٢١٠]، رقم (٢٠٧٠٣).

(٣)- مسند الشهاب القضاعي [٢/ ٢٠٢] رقم (١١٨٥) بلفظ: ((ليس لفاسق غيبة))، وفي جامع الأصول للجزري ابن الأثير [٨/ ٤٥٠] رقم (٦٢١٩)، والطبراني في الكبير [١٩/ ٤١٨] رقم (١٠١١)، بلفظ: ((ليس للفاسق غيبة)).

(٤)- خاليا عن الصوارف أي: إذا لم يعْرِض لك صارف يُرجح الترك؛ أي: ترك

=

واعلم، أن هذين النوعين من الموالاة، والمعاداة، من أشنع القبائح، وأعظم الفضائح:

[موالاة أعداء الله]

أما الأول: وهو موالاة أعداء الله، فكفى في الزجر عنها قوله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ...﴾ الآية [المجادلة٢٢]، وناهيك[1] بهذه الآية قارعة وزاجرة لمن له أذن واعية، فإنه نفى عمن هذه حقيقته حقيقةَ الإيمان.

قال جار الله في كشافه، في تفسير قوله تعالى: ﴿لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية [آل عمران٢٨]: «نهوا أن يوالوا الكافرين لقرابة بينهم، أو صداقة قبل الإسلام، أو غير ذلك من الأسباب، التي يتصادق بها، ويتعاشر، وكرر ذلك في القرآن: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة٥١]، ﴿لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾ [المائدة٥١]، ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ الآية، والمحبة في الله، والبغض في الله، باب

إنزال المضرة وصرف المنفعة، لا ترك الإرادة لذلك؛ لأن عداوتك له باقية، وإنما العارض صرفك عن الفعل.

(١)- ناهيك: كلمة تعجب واستعظام، قال ابن فارس: هي كما يقال: حسبك، وتأويلها: أنه غايةٌ تنهاك عن تطلب غيره، [من معجم ابن فارس].

عظيم، وأصل من أصول الإيمان[(١)]»، وقال -رحمه الله- في قوله تعالى في تلك الآية: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾، يعني: أنه منسلخ من ولاية الله رأسًا، وهذا أمر معقول؛ فإن موالاة الولي، وموالاة عدوه، أمران متنافيان، قال الشاعر:

تَـــود عَـــدُوِّيْ ثُـــمَّ تَـــزْعُمُ أَنَّنِـــي
صَـدِيقَكَ لـيسَ النَّـوْكُ عَنْـكَ بِعَـازِبِ[(٢)]

[معاداة أولياء الله]

وأما الثاني -وهو معاداة أولياء الله- فناهيك بها خطة شنيعة، وخليقة فظيعة[(٣)]، وقد ورد عنه صلى الله عليه وآله وسلم: ((لا يكون المؤمن مؤمنًا حتى يرى لأخيه المؤمن ما يرى لنفسه، ويكره له ما يكره لنفسه)) أو كما قال[(٤)].

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم من حديث طويل، رواه معاذ، وأخرجه: ابن ماجه، والحاكم وقال صحيح: ((ألا ومن عادى أولياء الله

---

(١)- الكشاف للزمخشري [١/ ٣٨٠] تفسير آل عمران.

(٢)- الكشاف للزمخشري [١/ ٣٨٠]، تفسير آل عمران، الآية (٢٨). والنوك: الحمق، وعازب: بعيد غائب.

(٣)- الخطة: الطريقة، والخليقة: الخُلُق.

(٤)- الأمالي الخميسية للإمام المرشد بالله عليه السلام [٢/ ٢٦٩] بلفظ: ((لا يؤمن العبد حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه))، والبخاري [١/ ١٢] رقم (١٣) بلفظ: ((لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه))، ومسلم [١/ ٦٧] رقم [٧١-(٤٥)].

فقد بارز الله بالمحاربة[١])).

[في تقسيم الموالاة والمعاداة]

تنبيه: اعلم أن الموالاة، والمعاداة: قد يكونان دينيتين كأن يوالي الغير لكونه ولياً لله، ويعاديه لكونه عدواً لله.

وإن لم يكونا كذلك فدنيويتان نحو: أن تحب له الخيرَ لقرابةٍ، أو نفع منه، والشرَّ لمضرة صدرت منه، أو نحو ذلك.

والمحرم في حق أعداء الله من كافر، أو فاسق، هو الموالاة الدينية فقط وتجوز الدنيوية، إلا ما حظره الشرع منها:

- من تعظيم بقولٍ، أو فعلٍ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة١٢٣]، وكالمشي إليهم على جهة التعظيم، لا لحاجة فيجوز.
- وكالدعاء لهم بخير الآخرة[٢]؛ لا بخير الدنيا فيجوز، إلا طول البقاء.

---

(١)- أمالي الإمام أبي طالب [٥٤٩] رقم (٧٦٧) مِن حديث بلفظ: ((يقول الله عز وجل: من أهان لي وليا فقد برز لمحاربتي))، وأخرجه ابن ماجه [٢/ ١٣٢٠] رقم (٣٩٨٩)، المعجم الكبير للطبراني [٢٠/ ١٢٣] رقم (٣٢١)، والحاكم في المستدرك [١/ ٤٤] رقم (٤) وصححه الذهبي، والطحاوي في شرح مشكل الآثار [٥/ ٤٨] رقم (١٧٩٨).

(٢)- كأن يغفر لهم الله تعالى، أو يرحمهم، أو يرضى عنهم، فلا يجوز، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُواْ أُوْلِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة١١٤].

•وكفعل أمر يكون فيه تقوية للظلمة، أو الفسقة على ظلمهم وفسقهم.

ويجوز -أيضاً- ما كان على وجه التقية، قال جار الله في قوله تعالى: ﴿إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ [آل عمران٢٨]: «رخص لهم تعالى في موالاتهم إذا خافوهم، والمراد بتلك الموالاة: مخالقة، ومعاشرة ظاهرة، والقلب مطمئن بالعداوة والبغضاء، وانتظار زوال الموانع من قشر العصا، كقول عيسى صلى الله عليه وآله: كن وسطًا، وامشِ في الناس جانبًا[1]».

والمحرم في حق المؤمن: هو المعاداة مطلقًا؛ دينيها، ودنيويها.

[النوع العاشر] الحمية

قيل في حقيقتها: العزم على نصرة من له بالعازم وجهُ اختصاصٍ، من رحامة، أو مِلَّة، أو ولاء.

قلت: الأقرب أن العزم المذكور من توابعها، وهي أمر موجود من النفس، لا يحتاج إلى تحديد، بل مثالها ظاهر.

والمذموم منها: ما كان على مبطل، فلا شك في قبحه؛ ويدل عليه قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ [حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ]﴾ [الفتح٢٦].

---

(١)- الكشاف: [١/ ٣٨٠]، تفسير سورة آل عمران، تفسير الآية (٢٨)، قال في الجوهر الشفاف: أي ليكن جسدك مع الناس ونيتك مع الله.

فأما ما كان منها على محق فجائز، بل واجب، وعليه الخبر: ((المؤمنون كالبنيان يشد بعضه بعضًا[(١)])).

[أمور ليست من الحمية المذمومة]

- ولا يعد من قسم القبيح الغضب من ذمِّ الأقارب المبطلين بغير إبطالهم من جبن، أو نحوه؛ ويدل عليه: أنه صلى الله عليه وآله وسلم، لما سمع من ذمَّ قريشاً في منصرفه من بدر الكبرى بالجبن، وتهوين أمرهم، التفت إلى الذامِّ وقال: ((مهلاً، والله، إن أولئك للملأ[(٢)])) ولا شك في تحريم أذى المؤمن بسبب مبطلي أقاربه؛ إذ لا مصلحة في ذلك، مع ما فيه من اجتراح المؤمن الاجتراح الذي لا حرج عليه فيه؛ لعدم إمكان دفعه.

[النوع الحادي عشر: المداهنة]

هي: الإغضاء[(٣)] عن المنكر، لئلا يغضب فاعله، ولا شك في قبحها؛ لوجوب النهي عن المنكر، وأقله بالقلب[(٤)].

---

(١)- الأمالي الخميسية للإمام المرشد بالله عليه السلام [٢/ ٣٤٧]، والبخاري [١/ ١٠٣] برقم (٤٨١)، ومسلم [٤/ ١٩٩٩] برقم [٦٥-(٢٥٨٥)].

(٢)- البحر الزخار للإمام المهدي -عليهما السلام-.

(٣)- الإغضاء: السكوت وتغاضيت عن فلان إذا تغابيت عنه وتغافلت، فالمداهن يُؤْثِرُ السكوت على الإنكار، ويترك الجد ويميل إلى المجاملة والملاينة.

(٤)- يشير عليه السلام إلى الخبر المشهور عنه صلى الله عليه وآله وسلم: ((من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإنكار)). رواه الإمام =

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم: ((القوا الفساق بوجوه مكفهرة[١])).

وهو يدل على: أن من سقط عنه وجوب الإنكار بالقول والفعل، لخللِ شرطٍ، لا يحسن منه الطلاقة، والْبِشْرُ[٢]، في حق مرتكب القبيح، فإن ذلك إدهان محرم؛ لما فيه من إيهام عدم استنكار القبيح.

فأما إذا أمكنه الإنكار، وفَعَلَهُ، لم يلزمه بعد ذلك هجرُهُ والغلظةُ عليه، خاصة مع الاضطرار إلى مخالقته[٣]؛ كزوجة وخادم فاسقين؛ لإجماع السلف على جواز ذلك مع الإنكار حسب الإمكان.

[في جواز بعض معاملات الفساق وشرط ذلك]

تنبيه: لا بأس بأكل طعام الفاسق، وإطعامه، ونحو ذلك من الاختلاط، مع إظهار كراهة فعله، والقيام بواجب الإنكار عليه.

أبو طالب في شرح البالغ المدرك ، والإمام أحمد بن سليمان في حقائق المعرفة، وفيها بدل الإنكار: ((الإيمان))، والإمام مجد الدين المؤيدي في مجمع الفوائد في التعليق على تتمة الروض النضير .

(١)- البحر الزخار للإمام المهدي -عليه السلام- ، وفي كنز العمال للمتقي الهندي [٣/ ٦٥] رقم (٥٥١٨)، وعزاه إلى ابن شاهين في الأفراد.

(٢)- الطلاقة: من طَلُق الرجلُ، بِالضَّمِّ طَلاقةً فَهُوَ طَلْقٌ وطَلِيقٌ أَي: مُسْتَبْشِر مُنْبَسِطُ الْوَجْهِ مُتَهَلِّلُه. [لسان]. والبِشْر: طلاقة الْوَجْه تَقول: لقِيه ببشر وَهُوَ حسن الْبشر. [المعجم الوسيط].

(٣)- كذا في المطبوع، وفي (أ): «مخالقته».

ودليله: [قوله تعالى]: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾، إلى قوله: ﴿أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة٨]، وفعلُهُ صلى الله عليه وآله وسلم في حق الرجل الذي قال فيه -حين استأذن له الحاجب-: ((بئس ابن أخ العشيرة هو))، ثم أذن له، وأَلَانَ له القولَ[1]، كما روته عائشة.

[صور مما هو من المداهنة وما ليس منها]

وليس من المداهنة -أيضًا-:

-تعظيم أهل الشرف من الكفار، والفساق؛ رجاء لرجوعهم إلى الخير، أو لنصرتهم للحق، أو لخذلهم للباطل، أو غير ذلك من المصالح الدينية وأفعاله صلى الله عليه وآله وسلم، من هذا القبيل ظاهرة شاهرة مع كثير من رؤساء المشركين، حتى انتهى ذلك إلى أنه أفْرَشَ رداءَهُ عدة منهم، قيل: خمسة نفر، وأقعد صلى الله عليه وآله وسلم عدي بن حاتم فوق مخدته قبل أن يسلم، وقال فيه: ((إذا جاءكم كريم قومٍ فأكرموه[2])).

فأما تعظيم من تلك صفته لمصلحة تختص المـُعَظِّمَ، من تحصيل نفعٍ، أو دفع ضرر عنه، فالأقرب عدم جوازه؛ ودليله

(١)- البخاري [٨/ ١٣] رقم (٦٠٣٢)، ومسلم [٤/ ٢٠٠٢] رقم [٧٣-(٢٥٩١)].

(٢)- لوامع الأنوار للإمام مجد الدين عليه السلام بسنده إلى سلسلة الإبريز [١/ ٤٨٦]، وابن ماجه [٢/ ١٢٢٣] رقم (٣٧١٢)، والطبراني في الكبير [١١/ ٣٠٤] رقم (١١٨١١).

أول سورة المودة[١]، وهي تقتضي العموم، فتدل على قبح تعظيمهم، وقصد نفعهم، أو دفع الضرر عنهم، وغير ذلك من لوازم المودة، فلا تقصر على السبب.

ومن مستقبحات هذا النوع:

مواصلة أمراء الجور، والمشي إليهم، وتعظيمهم، وتهنئتهم، وفي الخبر: ((من مشى إلى ظالم، وهو يعلم أنه ظالم، فقد برئ من الإسلام[٢])). وغيره من الأخبار المتضمنة للترهيب في هذا المعنى.

ولا يعترض بمواصلة بعض السلف الصالح لمن تلك صفته؛ كالحسن السبط لمعاوية، وزين العابدين لعبد الملك، وكثير من العلماء الراشدين قيل: فمن بحث السير والتواريخ تيقن أنهم ما

---

(١)- سورة المودة هي سورة الممتحنة، وأولها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاء مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ﴾ وفي المطبوع بعد قوله: «أول سورة المودة»: «قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾، وقوله تعالى في سورة المجادلة: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا﴾ الآية»، وهذا ليس في المخطوطتين اللتين اعتمدت عليهما.

(٢)- الطبراني في الكبير [١/ ٢٢٧] برقم (٦١٩)، والبيهقي في شعب الإيمان [١٠/ ١٢٦] برقم (٧٢٦٩).

واصلوهم بتعظيم، بأن يتجرد قصدهم لزيارة(١)، أو تهنئة(٢)، أو وداع، أو نحو ذلك، وإنما كان ذلك منهم: إما لطلب حاجة خاصة، أو لإجابة داعٍ وطلب.

فإذا ظهر خطابٌ في أمر من الأمور أظهروا الاستخفاف الكلي بأمراء الجور؛ ومنه القصة المشهورة للحسن عليه السلام مع معاوية، وأخيه عتبة، وعمرو بن العاص، ومن حضرهم؛ فإن الحسن عليه السلام أظهر من الاستخفاف بهم، والتوبيخ لهم ما أظهر(٣)، وغير ذلك من مقاماته عليه السلام.

---

(١)- في (أ): للزيارة.

(٢)- في (أ): التهنئة.

(٣)- والقصة باختصار في بعض المواضع خشية التطويل هي: ما «روى الزبير بن بكار في كتاب المفاخرات، قال: اجتمع عند معاوية عمرو بن العاص، والوليد بن عقبة بن أبي معيط، وعتبه بن أبي سفيان بن حرب، والمغيرة بن شعبة، وقد كان بلغهم عن الحسن بن علي عليه السلام قوارص، وبلغه عنهم مثل ذلك، فقالوا: يا أمير المؤمنين، إن الحسن قد أحيا أباه وذكره، وقال فصدق، وأمر فأطيع، وخفقت له النعال، وإن ذلك لرافعه إلى ما هو أعظم منه، ولا يزال يبلغنا عنه ما يسوءنا. قال معاوية: فما تريدون؟ قالوا: ابعث عليه فليحضر لنُسُبَّهُ ونَسُبَّ أباه، ....، فبعث إليه معاوية، فجاءه رسوله، فقال: إن أمير المؤمنين يدعوك. قال: من عنده؟ فسماهم له. فقال الحسن عليه السلام: ما لهم خرَّ عليهم السقف من فوقهم، وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون؟ ثم قال: يا جارية، ابغيني ثيابي، اللهم إني أعوذ بك من شرورهم، وأدرأ بك في نحورهم، وأستعين بك عليهم، فاكفنيهم كيف شئت وأنى شئت، بحول منك وقوة، يا أرحم الراحمين! ثم قام، فلما دخل على معاوية، أعظمه وأكرمه، وأجلسه إلى جانبه، وقد ارتاد =

القوم، وخطروا خطران الفحول، بغيا في أنفسهم وعلوا، ثم قال: يا أبا محمد، إن هؤلاء بعثوا إليك وعصوني. فقال الحسن عليه السلام: سبحان الله، الدار دارك؟ والإذن فيها إليك، والله إن كنت أجبتهم إلى ما أرادوا وما في أنفسهم، إني لأستحيي لك من الفحش، وإن كانوا غلبوك على رأيك، إني لأستحيي لك من الضعف، فأيهما تقرر، وأيهما تنكر؟ أما إني لو علمت بمكانهم جئت معي بمثلهم من بني عبد المطلب، وما لي أن أكون مستوحشا منك ولا منهم، إن وليي الله، وهو يتولى الصالحين ...» فتكلم عمرو، ثم الوليد، ثم عتبة، ثم المغيرة، كل يفحش القول في أمير المؤمنين –صلوات الله عليه– وفي الحسن، فتكلم الحسن عليه السلام فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على رسوله صلى الله عليه وآله، ثم قال: «أما بعد يا معاوية، فما هؤلاء شتموني ولكنك شتمتني، فحشا ألفته، وسوء رأى عرفت به، وخلقا شينا ثبت عليه، وبغيا علينا، عداوة منك لمحمد وأهله، ولكن اسمع يا معاوية، واسمعوا، فلأقولن فيك وفيهم ما هو دون ما فيكم. أنشد كم الله أيها الرهط، أتعلمون أن الذي شتمتموه منذ اليوم، صلى القبلتين كليهما وأنت يا معاوية بهما كافر تراها ضلالة، وتعبد اللات والعزى غواية؟ وأنشدكم الله هل تعلمون أنه بايع البيعتين كليهما بيعة الفتح وبيعة الرضوان، وأنت يا معاوية بإحداهما كافر، وبالأخرى ناكث؟ وأنشدكم الله هل تعلمون أنه أول الناس إيمانا، وأنك يا معاوية وأباك من المؤلفة قلوبهم، تسرون الكفر، وتظهرون الإسلام، وتستمالون بالأموال؟ وأنشدكم الله ألستم تعلمون أنه كان صاحب راية رسول الله صلى الله عليه وآله يوم بدر، وأن راية المشركين كانت مع معاوية ومع أبيه، ثم لقيكم يوم أحد ويوم الأحزاب ومعه راية رسول الله صلى الله عليه وآله، ومعك ومع أبيك راية الشرك، وفى كل ذلك يفتح الله له ويفلج حجته، وينصر دعوته، ويصدق حديثه، ورسول الله –صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَآله– في تلك المواطن كلها عنه راض، وعليك وعلى أبيك ساخط؟ وأنشدك الله يا معاوية، أتذكر يوما جاء أبوك على جمل أحمر، وأنت تسوقه، وأخوك عتبة هذا يقوده، فرآكم رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال: ((اللهم العن الراكب والقائد والسائق!)) ... إلى أن قال: «يا معاوية أظنك لا تعلم أنى أعلم ما دعا به عليك رسول الله –صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَآله– لما أراد أن يكتب كتابا إلى بني خزيمة،
=

فبعث إليك ابن عباس، فوجدك تأكل، ثم بعثه إليك مرة أخرى فوجدك تأكل، فدعا عليك الرسول بجوعك ونهمك إلى أن تموت. وأنتم أيها الرهط: نشدتكم الله، ألا تعلمون أن رسول الله -صلى إليه عليه وآله- لعن أبا سفيان في سبعة مواطن لا تستطيعون ردها؟ ...». وذكر المواطن السبعة، ثم قال: «وأما أنت يا ابن العاص، فإن أمرك مشترك، وضعتك أمك مجهولا، من عهر وسفاح، فيك أربعة من قريش، فغلب عليك جزارها، ألأمهم حسبا، وأخبثهم منصبا، ثم قام أبوك فقال: أنا شانئ محمد الأبتر، فأنزل الله فيه ما أنزل. وقاتلت رسول الله -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَآله- في جميع المشاهد، وهجوته وآذيته بمكة، وكدته كيدك كله، وكنت من أشد الناس له تكذيبا وعداوة، ثم خرجت تريد النجاشي مع أصحاب السفينة، لتأتي بجعفر وأصحابه إلى أهل مكة، فلما أخطأك ما رجوت، ورجعك الله خائبا، وأكذبك واشيا، جعلت حدك على صاحبك عمارة بن الوليد، فوشيت به إلى النجاشي، حسدا لما ارتكب مع حليلتك، ففضحك الله، وفضح صاحبك، فأنت عدو بني هاشم في الجاهلية والإسلام، ثم إنك تعلم وكل هؤلاء الرهط يعلمون أنك هجوت رسول الله -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَآله- بسبعين بيتا من الشعر، فقال رسول الله -صلى الله عليه وآله-: ((اللهم إني لا أقول الشعر ولا ينبغي لي، اللهم العنه بكل حرف ألف لعنة))، فعليك إذاً من الله ما لا يحصى من اللعن ...»، إلى أن قال: «وأما أنت يا وليد، فوالله ما ألومك على بغض علي وقد جلدك ثمانين في الخمر، وقتل أباك بين يدي رسول الله صبرا، وأنت الذي سماه الله الفاسق، وسمى عليا المؤمن، حيث تفاخرتما فقلت له: اسكت يا علي، فأنا أشجع منك جنانا، وأطول منك لسانا، فقال لك علي: اسكت يا وليد، فأنا مؤمن وأنت فاسق، فأنزل الله تعالى في موافقة قوله: ﴿**أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون**﴾، ثم أنزل فيك على موافقة قوله أيضا:﴿**إن جاء كم فاسق بنبأ فتبينوا**﴾ ...» إلى أن قال: «وأما أنت يا عتبة، فوالله ما أنت بحصيف فأجيبك، ولا عاقل فأحاورك وأعاتبك، وما عندك خير يرجى، ولا شر يتقى، وما عقلك وعقل أمتك إلا سواء، وما يضر عليا لو سببته على رءوس الأشهاد! وأما وعيدك إياي بالقتل فهلا قتلت اللحياني إذ وجدته على فراشك ...» إلى أن قال: «وكيف ألومك على بغض علي، وقد قتل خالك

=

نعم، أما إتيانهم لمجرد وعظ، أو تذكير، أو أمر بمعـروف، أو نهي عن منكر، ونحوه، فلا إشكال في حسنه؛ فإنه صلى الله عليه وآله وسلم أتـى أبا جهل إلى داره ليأمره بإيفاء غريمه(١).

الوليد مبارزة يوم بدر، وشرك حمزة في قتل جدك عتبة، وأوحدك من أخيك حنظلة في مقام واحد؟ وأما أنت يا مغيرة، فلم تكن بخليق أن تقع في هذا وشبهه، وإنما مثلك مثل البعوضة إذ قالت للنخلة: استمسكي، فإني طائرة عنك، فقالت النخلة: وهل علمت بك واقعة علي فأعلم بك طائرة عني! والله ما نشعر بعداوتك إيانا، ولا اغتممنا إذ علمنا بها، ولا يشق علينا كلامك، وإن حد الله في الزنا لثابت عليك، ولقد درأ عمر عنك حقاً الله سائله عنه، ولقد سألت رسول الله صلى الله عليه وآله: هل ينظر الرجل إلى المرأة يريد أن يتزوجها؟ فقال:((لا بأس بذلك يا مغيرة ما لم ينوِ الزنا))، لعلمه بأنك زان. وأما فخركم علينا بالإمارة، فإن الله تعالى يقول: ﴿**وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا**﴾. ثم قام الحسن فنفض ثوبه، وانصرف» [شرح النهج لابن أبي الحديد [٦/ ٢٨٥-٢٩٤].

(١)- والقصة تذكر في معجزاته صلى الله عليه وآله وسلم، وهي: «قال يهودي لأمير المؤمنين عليه السلام: إن موسى بن عمران قد أعطي العصا فكان ثعباناً، فقال له علي عليه السلام: لقد كان ذلك، ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم أعطي ما هو أفضل من هذا، إن رجلاً كان يطالب أبا جهل بن هشام بدينٍ كان له عنده، فلم يقدر عليه، واشتغل عنه، وجلس يشرب، فقال له بعض المستهزئين: من تطلب؟ فقال: عمرو بن هشام -يعني أبا جهل- ولي عنده دين، قالوا: فندلك على من يستخرج حقك؟ قال: نعم، فدلوه على النبيء صلى الله عليه وآله وسلم، وكان أبو جهل يقول: ليت لمحمد إليَّ حاجة، فأسخر به وأرده، فأتى الرجل النبيء صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: يا محمد، بلغني أن بينك وبين أبي الحكم حسبًا، فأنا استشفع بك إليه، فقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فأتاه، فقال له: قم فأدِّ إلى الرجل حقه، فقام مسرعاً حتى أدى إليه حقه، فلما رجع إلى مجلسه، قال له بعض أصحابه: كل ذلك فَرَقاً [أي: خوفا] من محمد، قال: ويحكم اعذروني إنه لما أقبل إليَّ رأيت عن يمينه ثمانية بأيديهم حرابٌ
=

وحُسْنُ هذا النوع مشروطٌ بأن يُعلَمَ قصدُهُ، وأن لا يُظَنَّ به إرادة تعظيم الظالم؛ فإن خشي عروض هذا الظن، ترك ذلك؛ لمعارضة المفسدة المصلحةَ.

[في وصل الظلمة، وعطاياهم وما يجوز وما لا يجوز]

تنبيه: لو أن الظالم وصل إلى الفاضل، أو العالم، تعظيماً له، فلا بأس بالقيام له تعظيماً، وتَلَقِّيهِ؛ مكافأة له على معروفه، أو لمصلحة دينية، كاستدعائه بذلك إلى تعظيم الفضلاء، ورفع شأنهم، وعدم تنفيره عنهم، ما لم تعارض المصلحة مفسدةٌ راجحةٌ، أو مساويةٌ. وليس له أن يكافئه بوصول منزله تعظيماً له؛ إذ يصير في هذه الحال المعظِّم، وفي الأولى هو المعظَّم، وإن قابل بنوع تعظيم.

وقد كرِهَ المؤيد بالله عليه السلام أكل طعامهم، وقبول عطاياهم؛ لأنه يورث محبتهم، وهي محرمة.

قيل: وإن أحسنوا إلى أحد لم يجب عليه من شكرهم إلا الاعتراف بأنهم أنعموا، مع يسير تعظيم لا يظهر به إجلال

تتلألأ، وعن يساره ثعبانين تصطك أسنانهما، وتلمع النيران من أبصارهما، لو امتنعت لم آمن أن يبعجوا [أي: يشقوا] بطني بالحراب، ويبتلعني الثعبانان فهذا أكبر مما أعطي موسى عليه السلام ثعبان بثعبان موسى عليه السلام، وزاد الله محمداً صلى الله عليه وآله وسلم ثعبان [ثعبانا] وثمانية أملاك». [المختار من صحيح الأحاديث والآثار [١٠٤١] وعزاه إلى أمالي أبي طالب].

كقيام من وصلوا إليه في وجوههم، فإنه لا أَثَرَ له في جنب وصولهم إليه، لا كالوصول إلى منازلهم لقصد نوع تعظيم كتهنئة، فتجليلهم في ذلك ظاهر، وأما إطعامهم، وإنزالهم، فتفضل وإحسان، لا تعظيم، فلا تحريم(١).

فائدة: [في لزوم هجرة الظلمة]

من لم يتمكن من الإقامة في ديارهم إلا بفعل ما لا يحلُّ، من تعظيمهم، ومواصلتهم، لزمته الهجرة، فإنها تلزم من تعذرت عليه الإقامة إلا مع فعل قبيح.

نكتة:[في البدع المستحدثة في المحاورات والمكاتبات]

- من البدع المحدثة في المداهنة: التعبد لغير الله في المحاورة، والمكاتبة(٢)، ولم يكن ذلك معروفاً على عهده صلى الله عليه وآله وسلم، وعهد أصحابه، بل كانت صفة مكاتبتهم أن يقولوا بعد البسملة: من فلان إلى فلان ابن فلان، سلام الله عليك، فإني أحمد الله إليك، وأعرفك بكذا. ويؤخذ قبح ذلك من قوله صلى الله عليه وآله وسلم: ((من ملك عبداً أو أمة فلا يقول: عبدي، أو

(١)- كذا في (أ) و(ب)، وفي المطبوع: «يحرم».

(٢)- المراد بالتعبد لغير الله تعالى في المكاتبة والمحاورة هو مثل أن يقال: أنا عبدك، أو أقلُّ عبيدك.

أمتـي، بـل فتـاي، أو فتـاتي، فـإن العبـاد عبـاد الله، والإمـاء إماء الله)). أو كما قال.

▪ ومنها: الدعاء لأهل الدول بتخليد الملك، في المحاورة، والمكاتبة؛ إذ فيه طلب ما أخبر الله بأنه لا يكون[(١)]، وأما إذا كان المدعو له ظالمًا، فمحرمٌ؛ للخبر: ((من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصى الله في أرضه[(٢)])). ففيه تصريح بعدم جواز الدعاء للظالم بالبقاء، فكيف بالتخليد.

وأما الدعاء بالبقاء للمحقِّ فحسن، وكذا استعمال الألقاب في المكاتبة المعتادة كشمس الدين، ونحوه، فإنه لا بأس به، وإن كان مبتدعاً؛ لجريه مجرى أسماء الأعلام المتضمنة تشريفاً؛ كصالح، وفاضل.

وكذا لا بأس باستعمال لفظ: «سيدي»، و«مولاي»، في حق من ظاهره الصلاح؛ فقد جرى استعماله في الصدر الأول.

---

(١)- إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ [الأنبياء٣٤].

(٢)-الانتصار للإمام يحيى بن حمزة عليه السلام مرفوعا، والبيهقي في شعب الإيمان [١٢/ ٤١] رقم (٨٩٨٦) عن الحسن البصري موقوفا، أبو نعيم في حلية الأولياء [٧/ ٤٦] عن سفيان الثوري موقوفا، وفي [٨/ ٢٤٠] عن يوسف بن أسباط. وروى الإمام الموفق بالله عليه السلام في الاعتبار رقم (١٦٤) عن أنس: ((إن اللّه يغضب إذا مدح الفاسق)).

وأما استعمال الأوصاف المستعملة في المكاتبة كالأفضل، والأكمل، فحُسْنُها، وقبحها، باعتبار: صدقها، وكذبها.

[النوع الثاني عشر:] حب الدنيا

قال صلى الله عليه وآله وسلم: ((حب الدنيا رأس كل خطيئة[(١)])).

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: ((من كانت الدنيا أكبر همه فرق الله تعالى عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له، ومن كانت الآخرة نيته جمع الله تعالى له أمره، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة[(٢)]))، ومن دعائه صلى الله عليه وآله وسلم: ((.. ولا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا[(٣)])). فينبغي معرفة

---

(١)- سياسة النفس للإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام بلاغا عن عيسى عليه السلام بلفظ: ((بحق أقول لكم: إن حب الدنيا رأس كل خطيئة))، وفي الاعتبار للإمام الموفق بالله عليه السلام باب فيما وعظ الله به عيسى عليه السلام: ((واعلم أن رأس كل خطيئة وذنب فهو حب الدنيا، فلا تحبها؛ فإني لا أحبها))، وبلفظ الإمام: في شرح البالغ المدرك للإمام أبي طالب عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وفي كشف الخفاء للعجلوني [١/ ٣٩٧] رقم (١٠٩٩) وقال: «رواه البيهقي في الشعب بإسناد حسن إلى الحسن البصري رفعه مرسلًا، وذكره الديلمي في الفردوس».

(٢)- تيسير المطالب للإمام أبي طالب عليه السلام [٥٠٩]، والاعتبار وسلوة العارفين للإمام الموفق بالله عليه السلام [٦٨] رقم (٣٧)، والمعجم الأوسط للطبراني [٥/ ١٨٦] رقم (٥٠٢٥)، وابن شاهين في الترغيب [١٠٧] رقم (٣٥٥)، وإتحاف الخيرة لابن حجر العسقلاني [٧/ ٤٣٢] رقم (٧٢٦١) وعزاه إلى أبي يعلى والطبراني في الكبير والأوسط والبيهقي في الزهد وابن ماجه والترمذي.

(٣)- الأمالي الخميسية للإمام المرشد بالله -عليه السلام- [١/ ٤٦٢]. والترمذي [٥/ ٥٢٨] رقم (٣٥٠٢)، والبحر الزخار للبزار [١٢/ ٢٤٣] رقم (٥٩٨٩).

ماهيتها المذمومة، لتجنب محبتها.

[ماهية الدنيا المذمومة]

اعلم أن الدنيا عبارة عن كل ما شغل عن الله قبل الموت، فكل ما لك فيه حظ، وغرض، ونصيب، وشهوة، ولذة، في عاجل الحال قبل الوفاة، فهي الدنيا.

وليس كل ذلك مذموم بل المذموم المنهي عن محبته: هو كل ما فيه حظ عاجل، ولا ثمرة له في الآخرة كالتلذذ بالمعاصي، والتنعم بالمباحات الزائدة على قدر الضرورة والحاجة، الداخلة في جملة الرفاهية والرعونة كالتنعم بالقناطير المقنطرة من الذهب، والفضة، والخيل المسومة، والأنعام، والحرث، والغلمان، والجواري، والمواشي، والقصور، والدور، ورقيق الثياب، ولذيذ الأطعمة، فحظ العبد من هذا كله هي الدنيا المذمومة(١)».

هكذا ذكره الغزالي، وهو كلامٌ قويٌّ؛ فإنه وإن كان كثيرٌ مما ذكره مباحاً، إلا أن محبته، والحرص عليه، يقود إلى المعاصي،

(١)- الغزالي في إحياء علوم الدين [٣/ ٢١٩]. والْقَنَاطِيرُ: جمع القَنْطَرَةِ، والقَنْطَرَةُ من المال: ما فيه عبور الحياة تشبيها بالقنطرة، وذلك غير محدود القدر في نفسه، وإنما هو بحسب الإضافة كالغنى، فربّ إنسان يستغني بالقليل، وآخر لا يستغني بالكثير، ولما قلنا اختلفوا في حدّه فقيل: أربعون أوقيّة. وقال الحسن: ألف ومائتا دينار، وقيل: ملء مسك ثور ذهبا إلى غير ذلك، وذلك كاختلافهم في حدّ الغنى. [لسان]. والرعونة: الحمق، والاسترخاء، والمراد هنا: الاسترخاء الناتج عن التنعم.

ويغفل عن ذكر الله والدار الآخرة، ويجرُّ إلى كل شيء دنيء.
وقد ورد بتقرير ما ذكره أحاديث:

منها: قوله صلى الله عليه وآله وسلم: ((من قضى نهمته من الدنيا حيل بينه وبين شهوته في الآخرة، ومن مدَّ عينه إلى زينة المترفين كان مهيناً في ملكوت السموات والأرض، ومن صبر على القوت الشديد صبراً جميلاً أسكنه الله من الفردوس حيث يشاء[1])). رواه الطبراني.

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: ((لا يصيب عبد من الدنيا شيئاً إلا نقص من درجاته عند الله، وإن كان كريماً[2])).

وتلخيص ما ذكره في التكملة[3]: أن الدنيا المنهي عن حبها هي الشرف والمال المطلوبان للمكاثرة، والمباهاة والعلو على من لم يحصلا له، لا لمصلحة دينية.

ودليله: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً

(١)- الطبراني في الأوسط [٨/ ٤٥] رقم (٧٩١٢)، والهيثمي في مجمع الزوائد [١٠/ ٢٤٨] رقم (١٧٨٢٠). ونهمته: حاجته وشهوته. والمترف: المتنعم، من الترف: التنعم.

(٢)- صحيح الترغيب والترهيب للألباني [٣/ ١٣٩] برقم (٣٢٢٠) وقال: رواه ابن أبي الدنيا، وإسناده جيد وروي عن عائشة مرفوعا والموقوف أصح.

(٣)- هو كتاب للإمام المهدي أحمد بن يحيى بن المرتضى عليه السلام، عنوانه: «تكملة الأحكام والتنقية من بواطن الآثام» في علم الباطن، كمَّل به كتابه: الأحكام في الحلال والحرام، المضمن في كتابه البحر الزخار، وقد أخذ الإمام عز الدين عليه السلام في كتابه هذا منه الكثير.

﴿فِي الْأَرْضِ﴾ الآية [القصص٨٣].

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: ((ما ذئبان في زَرِيْبَةٍ غنم بأكثر فساداً من حب الشرف والمال في دين الرجل المسلم[1])).

[أمور ليست من حب الدنيا]

وليس من المنهي عنه: محبة جمع المال لتحصيل الكفاية.

ولا محبة حفظ المال من دار، وعقار، وذهب، وفضة، ونحو ذلك، والاحتراز عليها من الإضاعة.

-ولا محبة التلذذ بالمباحات؛ من مطعم، ومشرب، ومركب، وملبس، ومنكح، وبنيان، فليس شيء من ذلك بخطأ؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ﴾ الآية [الأعراف٣٢].

وكذلك، ما كان مما ذكر لطلب تَجَمُّلٍ في الناس، فلا بأس به.

ومعنى التجمل: حصول جمالٍ يحترزُ به مَنْ حَصَلَ لَهُ عن حطِّ مرتبته، والاستخفاف به المخالف لما يستحقه في ظاهر حاله.

وبهذا التفسير والتقرير الأخير يتيسر الأمر في مجانبة الدنيا المذمومة، واطِّرَاحِها على من له أدنى مُسْكَة، فإنّ طلب الشرف والمال للعلو لا يكثر وقوعه من أهل قوة الإيمان، إنما يقصده ويعتمده المتجبرون، المتمردون، الغافلون عن الله بالكلية.

---

(١)- الإمام الموفق بالله عليه السلام في الاعتبار رقم (٧٥)، الترمذي [٤/ ٥٨٨] رقم (٣٢٧٦) بلفظ: ((ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال، والشرف لدينه))، وأحمد في مسنده [٢٥/ ٨٥] رقم (١٥٧٩٤). والزريبة: حظيرة الغنم.

[معنى حب الدنيا رأس كل خطيئة ودواء ذلك]

فإن قيل: ما معنى كون حب الدنيا رأس كل خطيئة، فإن معرفة ذلك غير متضحة؟

قلت: إذا تأملت، ووفيت النظر حقه، وجدت الخلائق الذميمة، والأفعال القبيحة أكثرها -بل كلها- متفرعة عن حب الدنيا والضنة[1] بها؛ فإن ذلك داعية الإنسان إلى البخل، والعصيان، والظلم، والعدوان، والله المستعان.

فإن قيل: الضرورة ملجئة إلى الدنيا، والاشتغال بها، وقد ورد فيها هذا الخبر، وأمثاله، فكيف السبيل إلى الخلاص؟

قلت: قد ذكر بعض الصالحين أن الخلاص من هذه الورطة، بأن يعرف العبد أن شرها متشعب من ثلاثة أمور: حب المال، وحب الجاه، وحب الشهوات.

فأما المال فيأخذ منه كفايته.

وأما الجاه فيترك المحافظة عليه، واللَهَجَ[2] إليه، إلا ما كان منه لأجل الدين، وفي نقصه نقص له[3].

وأما الشهوات ففي الحلال غُنْيَةٌ[4] عن غيره، فيقتصر منه

---

(١)-الضِّنَّة بالضاد: البخل، أي: البخل بالدنيا.

(٢)- اللهج: لَهِجَ بالأَمرِ لَهَجاً، ولَهْوَجَ، وأَلْهَجَ كِلَاهُمَا: أُولِعَ بِهِ واعْتادَه. [لسان].

(٣)- أي: وفي نقص الجاه نقص للدين.

(٤)-غُنْيَة: غَنِيَ بكذا عن غيره من باب تعب، إذا استغنى به والاسم: الغُنية بالضم. [لسان].

على مقدار الضرورة، وعلى العبد مجاهدة نفسه، وليس مع ذلك إلا إعانة الله، ومادته، ولطفه، ورحمته.

[النوع الثالث عشر] محبة الجاه والشهرة

هي نوع خاص من محبة الدنيا، دعا إلى إفرادها بالذكر مسيسُ الحاجة[١] إلى التحرز عنها.

ومعنى الجاه: ملك القلوب المطلوب تعظيمها وطاعتها؛ ليستعمل -بواسطة القلوب- أربابها في أغراضه، ومآربه[٢]، وأصل الجاه: انتشار الصيت، وحصول الشهرة[٣].

وهما مذمومان، وكفى في ذمهما ما رواه أنس: ((حسب امرئ من الشر -إلا من عصمه الله- أن يشير إليه الناس بالأصابع، في دينه ودنياه[٤])). وعن عليٍّ -عليه السلام-: (تبذَّل[٥] ولا تشتهر، ولا

---

(١)- مسيس الحاجة: ما ألجأت إليه، يقال: مَسَّت الحاجة إلى كذا: ألجأت إليه.

(٢)- والمعنى بعبارة أخرى: أنك تستخدم مَنْ ملكتَ قلبه لتحقيق أغراضك ومآربك، وامتلاكك لقلبه حصل بما انتشر عنك من ذكر حسن وعلو قدر ومنزلة، أي: بالجاه والشهرة، فلأن الجاه والشهرة وسيلة لامتلاك القلوب، وامتلاك القلوب وسيلة لاستخدام أصحاب تلك القلوب لتحقيق أغراضك، فلذلك ينشأ لديك محبة الجاه والشهرة لما يتحقق بهما من الأغراض والمآرب.

(٣)- الصِّيت بالكسر: الذكر الجميل في الناس. والشهرة: الظهور والوضوح.

(٤)- البيهقي في شعب الإيمان [٩/ ٢٢٤] رقم (٦٥٧٩)،

(٥)- التبذل: ترك التزين والتهيؤ بالهيئة الحسنة الجميلة على جهة التواضع. [لسان].

ترفع شخصك لتذكر، تعلم واكتم، واصمت تسلم، تسرّ الأبرار، وتغيظ الكفار[(١)]).

وذمُّ الشهرة مدحٌ للخمول، وتنبيهٌ على فضله، ويدل عليه ما روي عنه صلى الله عليه وآله وسلم: ((رُب أشعث أغبر ذي طِمْرَين، لا يؤبه له، لو أَقسَمَ على الله لأَبَرَّهُ[(٢)])). وعنه صلى الله عليه وآله وسلم: ((إن من أمتي [من] لو أتى أحدَكم يسأله ديناراً لم يعطه إياه، ولو سأله درهماً لم يعطه إياه، ولو سأله فلساً لم يعطه إياه، ولو سأل الله تعالى [الجنة] لأعطاه إياها، ولو سأله الدنيا لم يعطه إياها، وما منعه إياها لهوانه عليه[(٣)])).

وكفى بهذا الحديث مزهداً في حب الجاه، ومرغباً في مجانبته وكفى في الترهيب عنه بما روي عنه صلى الله عليه وآله وسلم: ((حب الجاه والمال ينبتان النفاق في القلب، كما ينبت الماء البقل[(٤)])).

---

(١)- شرح النهج لابن أبي الحديد [٢/ ١٨١] فصل في ذكر الآيات والأخبار الواردة في ذم الرياء والشهرة.

(٢)- الإمام المرشد بالله في الأمالي الخميسية، في الحديث الثامن والعشرون. والترمذي [٥/ ٦٩٢] برقم (٣٨٥٤)، وأحمد في مسنده [١٩/ ٤٥٩] برقم (١٢٤٧٦). والطِمْران: مثنى طِمْر، وهو الثوب البالي. لا يُؤْبَهُ له: لا يُفطن له ولا يُهْتَمُّ بأمره.

(٣)- الطبراني في الأوسط [٧/ ٢٩٨] برقم (٧٥٤٨)، بلفظ: ((إن من أمتي من لو جاء أحدكم فسأله دينارا لم يعطه، ولو سأله درهما لم يعطه، ولو سأله فلسا لم يعطه، ولو سأل الله الجنة لأعطاه إياها، ذو طمرين، لا يؤبه له، لو أقسم على الله لأبره)).

(٤)- الغزالي في إحياء علوم الدين [٣/ ٢٧٨].

[ضابط في حسن محبة الجاه وقبحها]

تنبيه: اعلم أن الجاه في الحقيقة وسيلةٌ إلى الأغراض، ووُصْلَةٌ[١] إليها، وما كان وسيلةً فحُسْنُه وقبحه بحسب المتوصَّلِ إليه؛ فإن كان المقصود من الجاه التوصل إلى أمر ديني كأمرٍ بمعروفٍ، أو نهيٍ عن منكرٍ، أو ما لا بد في المعاش منه، لم يَقْبُحْ محبته.

وإن كان الغرض غير ذلك، فيقبح التُّعرضُ له، والسعي إليه كما تقدم.

[النوع الرابع عشر]

حب المدح، وكراهة الذم

هما نوعان من جنس محبة الدنيا، خُصَّا بالذكر لنحو ما تقدم[٢].

واعلم أن هلاك أكثر الناس لخوف مذمة الناس، ورجاء امتداحهم، بأن جعلوا حركاتهم وسكناتهم على حسب ما يوافق رضا الناس، ويستجلب ثناءهم؛ طلبا للمدح، وهربا من الذم، وذلك من المهلكات، فنعوذ بالله من سلب توفيقه.

---

(١)- الوُصْلَةُ: الاتصال، وما اتصل بالشيء، وكل شيء اتصل بشيء فما بينهما وُصْلَة. [لسان].

(٢)- أي: للحاجة الماسة إلى التحرز منهما.

[معالجة الممدوح نفسَه]

وينبغي معالجة النفس لتزول عنها هذه الخليقة الذميمة، كأن يستحضر الممدوح أن الذي مُدِحَ به إنْ كان من صفات الكمال الدنيوية فهو كالفرح بنبات الأرض الذي يصير على القرب هشيمًا[١]، وإن كان من الصفات الدينية، فذلك مما لا ينبغي الفرح به؛ لأن الخاتمة غير معلومة، وخطرها باقٍ، ففي الخوف من أمرها ما يشغل عن الفرح بكل ما في الدنيا.

وعلى كل حال، فالمادح: إن صَدَقَ، فلا وجه للفرح بمدحه، بل بالصفة التي مدح لأجلها، وهي من فضل الله عليك.

وإن كذب، فينبغي أن يغمَّك ذلك، ولا تفرح به.

[معالجة المذموم نفسَه]

وأما المذموم فليعالج نفسه باستحضار أن مَنْ ذَمَّهُ لا يخلو عن ثلاثة أوجه:

أحدها: الصدق، وقصد النصح، فينبغي شكره، وتقلُّدُ مِنَّتِهِ[٢]، والفرح بقوله؛ فإن مهدي عيوبك إليك قد أرشدك إلى المهلكة لتتقيها.

---

(١)- الهشيم: قال في الصحاح: الهشيم من النبات : اليابس المتكسر، والشجرة البالية يأخذها الحاطب كيف يشاء.

(٢)- تقلد منته: أن تجعل ما امتنَّ به عليك من النصح كالقلادة في عنقك.

الثاني: الصدق، وقصد الإيذاء، والتعنت[1]، فينبغي أن تخطر بخاطرك أنك قد انتفعت بقوله؛ إذ أرشدك إلى عيبك إن كنت جاهلاً له، وأَذْكَرَك إيّاه إن كنت غافلا عنه، وقبحه في عينك يبعث حرصك على إزالته إن كنت قد استحسنته، وكل ذلك من أسباب السعادة، وقد استفدته منه، وما صفتك إلا صفة رجل أراد الدخول على ملك، وفي ثوبه عَذِرَة[2]، فقيل له: أيها المتلوث بالعذرة، طهر ثيابك عنها، فتلك غنيمة في حقه؛ إذ ربما لو دخل على الملك وحالته تلك لم يأمن أن يسلبه حياته، فأما قصد الذام هذا للإيذاء والتعنت، فجناية على نفسه في دينه، فلا تغضب عليه.

الثالث: أن يكون مفترياً عليك، وأنت بريء مما عابك به، فلا تكره ذلك، ولا تشتغل بذمه، وانظر في ثلاث جهات:

أحدها: أنك وإن خلوت عن ذلك العيب- فلا تخلو عن أمثاله، فاشكر الله إذ لم يطلعه على عيوبك، بل دفعه عنك، فلا تشتغل بذكر ما أنت بريء منه.

الثانية: أن الذي صدر منه من مكفرات ذنوبك ومساوئك، فكأنه بذمه لك قد طهرك من ذنوب قد تلوثْتْ بها؛ إذ كل

---

(١)- التعنت هنا بمعنى: طلب الزلة والخطأ، أي أن القصد هو الإيذاء وطلب الخطأ.

(٢)- عذرة ككلمة: مفرد عذرات: الغائط «الخراءة».

مغتاب لك مُهْدٍ حسناته إليك، وكل مادح لك قاطع لظهرك، فما شأنك تفرح بقطع الظهر، وتغتم بهدايا الحسنات المقربة إلى الله، وأنت تزعم أنك تحب القرب منه.

الثالثة: أن ذلك الذامّ المسكين قد جنى على دينه حتى سقطت منزلته عند الله، وهلك بافترائه، وتعرض للعقاب، فلا تجمع عليه إلى غضب الله غضبك، فتشتد شماتة الشيطان، بل قل: اللهم أصلحه، اللهم تب عليه، اللهم ارحمه، كما قال ﷺ - وقد ضربه قومه-: ((اللهم اغفر لقومي، فإنهم لا يعلمون(١)))، يعلمون(١)))، وكما دعا إبراهيم بن أدهم لمن شجه بالمغفرة، وقال: أعلم أني مأجور بسببه، فلا أرضى أن يكون هو معاقبا بسببي. هكذا ذكره علماء الطريقة.

قلت: الترقي إلى هذه الدرجة من خواص أفراد الأولياء، وقـلَّ من ينتهي به حظه إلى هذا المقام؛ لكن على العبد استفراغ الوسع في

---

(١)- البخاري [٤/ ١٧٥] برقم (٣٤٧٧)، وتذكر بعض روايات أهل الحديث أن النبيءﷺ- ليس القائل؛ بل حكاه عن نبيء آخر (أو عبدا من عباد الله في رواية) آذاه قومه؛ كما عند أحمد في مسنده [٧/ ٣٥١] رقم (٤٣٣١)، وكما عند البخاري نفسه في: الأدب المفرد [١/ ٢٦٦] رقم(٧٥٧)!! وروايات أخرى تجعل القائل هو رسول الله ﷺ؛ كما عند ابن حبان [٣/ ٢٥٤] رقم (٩٧٣)، وعند الطبراني قي الكبير [٦/ ١٢٠] رقم (٥٦٩٤) وغيرهما، ويذكرون أن ذلك كان في أُحُد عندما شُجَّ وكُسِرَت رباعيته ﷺ.

التخلق بأخلاق الصالحين، ولا يمنعه العجز عن بلوغ الدرجة القصوى عن الترقي إلى الدرجة الوسطى، والله الموفق والمعين.

[النوع الخامس عشر:] الجبن

هو -أيضًا- نوع من جنس محبة الدنيا؛ لأن الحامل عليه الإخلاد إليها، وعدم السمحان بها وأفرد بالذكر لما تقدم.

وهو: البخل بالنفس .

ولا شك في تحريمه حيث يجب بذلها في طلب عدوٍّ، أو مدافعته؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ ...﴾ الآية [الأنفال١٦]، ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾ [البقرة٢١٦]، ونحو ذلك من أدلة الجهاد وأدلة وجوبه[1]، وتحريم الجبن، معروفة مقررة في مواضعها.

فإن قيل: ما تقول في قوله صلى الله عليه وآله وسلم: ((الجبن والجرأة غريزتان يضعهما الله حيث يشاء[2]))، فإن الغرائز لا مدخل لها في تحريم، ولا تحليل[3]؟

قلت: المدح والذم، والتحليل والتحريم، متعلقة بالممكنِ،

---

(١)- وجوبه: أي: وجوب الجهاد.

(٢)- أبو يعلى [١١/ ٣٣٣] رقم (٦٤٥١)، والشهاب القضاعي في مسنده [١/ ١٩٧] رقم(٢٩٧). والبعض يرفعه إليه صلى الله عليه وآله وسلم، والبعض يجعله موقوفا على عمر بن الخطاب. وقال أمير المؤمنين -صلوات الله عليه- في عهده للأشتر -رحمه الله- حين ولاه مصر: (فإن البخل، والجبن، والحرص، غرائز شتى، يجمعها: سوء الظن بالله). [النهج كتاب (٥٣)].

(٣)- كذا في المطبوع، وفي (أ) و(ب): «حلٍّ، ولا حرمة».

المتوقفِ على الاختيار، وهو: الإقدام والفرار، ولا إشكال في تسميتهما شجاعةً وجبناً، في لغة العرب.

وقد حُمل الخبر على أن المراد بالجبن والجرأة فيه- سببهما – تجوزاً- وإلا فهما حقيقة: الإقدام ونقيضه.

[النوع السادس عشر:] البخل

عبارة عن شدة حب المال، الحاملة على منعه وإن وجب بذله.

وهو في الحقيقة نفس المنع، وإنما الحب سببه، كما تقدم في الجبن.

وقد ذم الله تعالى ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ [النساء٣٧]، فاقتضى ذلك قبحه، وقال: ﴿فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ﴾ [محمد٣٨].

والمنع المذموم: منع المال عما يجب صرفه فيه مِن أداءِ حقٍّ، أو تحصيلِ نفعٍ، أو دفعِ ضررٍ، أو ذمٍّ.

وكفى في البعث على اجتنابه، والترغيب في تركه، بقوله تعالى -في غير موضع من كتابه-: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ[1]﴾ [الحشر٩]، وما في هذه الآية الكريمة المكررة من

(١)- الآية بتمامها: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، ويقول تعالى – =

أنواع التأكيد لفلاح من وُقِيَ الشحَّ، على ما يعرفه من له مُسْكَة[(١)] بعلم البلاغة.

وقوله ﷺ: ((اتقوا الشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم؛ حملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم[(٢)]))، رواه مسلم.

وقوله ﷺ: ((لا يجتمع شح وإيمان في قلب مؤمن[(٣)])) رواه النسائي، وغيره.

[التقتير]

التقتير: نوع من البخل وهو: أن ينفق من المال دون الكفاية، مع سعته لما يكفي، وقد ذمه الله سبحانه في قوله: ﴿لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ [الفرقان٦٧]، فإن سياق الآية[(٤)] قاضٍ بقبح التقتير، والإسراف.

أيضاً-: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْراً لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن١٦].

(١)- الـمُسْكَة: ما يُتمسك به، وفلان لا مسكة له: لا عقل له والمراد هنا: من له معرفة واتصال بعلم البلاغة.

(٢)-مسلم[٤/ ١٩٩٦]رقم[٥٦ -(٢٥٧٨)]، وأحمد في المسند[٢٢/ ٣٥٢]رقم (١٤٤٦١).

(٣)-النسائي في سننه[٦/ ١٤]رقم (٣١١٤)، وأحمد في مسنده[١٢/ ٤٥٠]رقم (٧٤٨٠).

(٤)-الآية بتمامها: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً﴾.

[التبذير]

والتبذير أيضاً، وهو: صرف المال فيما ليس فيه جلب نفع، ولا دفع ضرر عن نفس، أو مال، أو عرض؛ قال تعالىٰ: ﴿وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيراً إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ [الإسراء٢٦-٢٧].

ومن السرف المذموم صرف المال لمجرد طلب الثناء. ويدل على قبحه: قوله تعالىٰ: ﴿كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ﴾ [البقرة٢٦٤].

والسرف والتبذير في الشرع: إضاعة المال، وصرفه في وجهٍ قبيحٍ.

[في الخلط بين التقتير والزهد]

تنبيه: قد يتوهم من لا تأمل له أن التقتير المذكور المذموم نوع من الزهد، وليس كما ظن؛ فإن التقتير داعيه حب الدنيا، والحرص عليها، والزهد: تركها ورفضها، فهما ضدان في الحقيقة.

[النوع السابع عشر] الفرح

هو: سرور يقترن به أفعال طرب تظهره.

والمذموم منه ما كان بمحظور.

ودليله: ﴿إِنَّ اللّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص٧٦]، ونحوها.

فائدة: [تقسيم الفرح باعتبار حكمه]

اعلم، أن الأفعال التي تقترن بالسرور، فيكون مجموعها فرحاً:

-إن كانت محظورة، لم يحل النظر إليها مطلقاً.

-وإن كانت مباحة، كاللعب بالخيل، فهي:

إما فرح بمحظور فقبيحةٌ؛ للآية، ولا يحل النظر إليها لقبحها.

وإما فرح لموجب مباح، أو مندوب، أو نعمة حصلت؛ فلا إثم فيها، ولا في النظر إليها.

ومن هذا القبيل: التدفيف المباح في الأعياد، والعرسات، والذي يعتاد من اللعب بالخيل، وشبهه، لنصر المحقين.

وقد روي عن عدة من الصحابة أن الرجل كان يَحْجِل عند حصول مسرة له ببشرى تبلغه(١)، وهو نوع لعب عند فرح، وينبه على جوازه: قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ [الروم٤-٥].

[النوع الثامن عشر:] الجزع

هو: الغم الذي يقترن به فعلٌ كخمشِ وجهٍ، وشقِّ جيبٍ(٢)، وكسرِ سلاحٍ، وعقرِ بهيمةٍ، ورفعِ صوتٍ.

---

(١)- روى أحمد -وغيره- في مسنده [١٢/ ٤٥٠] رقم (٧٤٨٠) أنه صلى الله عليه وآله وسلم لما قال لأمير المؤمنين -صلوات الله عليه-: ((أنت مني وأنا منك))، قام فحَجَلَ، ولما قال لجعفر الطيار عليه السلام: ((أنت أشبهت خلقي وخلقي))، فقام فَحَجَلَ، ولما قال لزيد رحمه الله: ((أنت مولاي))، قام فحجل. والحجل: رفع رِجل، والقفز على الأخرى لحصول مسرة.

(٢)- الخمش: الخدْشُ فِي الْوَجْهِ وَقَدْ يُسْتَعْمَلُ فِي سَائِرِ الْجَسَدَ. والجيب: قد يطلق على الصدر قال تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور٣١]، أي: على صدورهن، وهو هنا بمعنى: ما يغطي الصدر، وشقه: شقّ ما يغطي الصدر من قميص أو نحوه.

وهو محرم، وتحريمه ظاهر، والنهي عنه متكاثر، ولا ريب في حظره، وهذا حيث كان على مصيبة دنيوية حادثة من فعل الله[١] -سبحانه-، وكذلك ما كان من جهة غيره تعالى.

فأما الجزع لمصيبة دينية كمصيبة يكتسبها، أو فاحشة يرتكبها، فالأقرب: جوازه؛ إذ لم ينكر صلى الله عليه وآله وسلم على من أتاه يحثو التراب على رأسه لمواقعة زوجته في نهار رمضان.



(١)- المصائب الحادثة من جهته تعالى: كالتي في قوله عز وجل: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة١٥٥]. وأما التي من جهة غيره: فكالذي يفعله الظلمة وولاة الجور بأهل الحق، ومن لا قوة له؛ كفرعون في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص٤]، فلا يجوز الجزع في ذلك؛ لأنه ابتلاء من الله تعالى بالتخلية لأمثال فرعون، قال تعالى عن فعل فرعون يخاطب قوم موسى عليه السلام: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوَءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة٤٩].

الفصل الثاني: [فيما يليق بالعبد ملازمته]

فيما يليق بالعبد ملازمته من الطرائق القويمة، وإمعان النظر في تحصيله، واستفراغ الوسع في التخلق به من الخلائق الحميدة المنجية.

والذي نذكره منها ثمانية عشر خُلُقًا:

[الخلق الأول:] النية

قال صلى الله عليه وآله وسلم: ((الأعمال بالنيات[1])). الخبر. رواه البخاري، ومسلم. وقال صلى الله عليه وآله وسلم: ((إنما يبعث الناس على نياتهم[2])). رواه ابن ماجه.

فينبغي أن يضمر العبد في قلبه، ويستحضر في ذهنه ما مؤداه وحاصله:

اللهم، ما أتيته من كل فعلٍ، وتجنبته منه، فإن ذلك لكل وجه حسن تريده، على الوجه الذي تريده، الواجب لوجوبه، والمندوب لندبه، والمباح لما يقترن به مما يُصيِّرُهُ قربةً، واجتناب القبيح لقبحه، وترك المكروه لكراهته.

---

(١)- لوامع الأنوار للإمام الحجة/ مجد الدين المؤيدي عليه السلام [١/ ٤٨٦] بسنده إلى سلسلة الإبريز، بلفظ: ((الأعمال بالنية)). وهو بعض حديث في: البخاري [١/ ٦] رقم (١)، ومسلم [٣/ ١٥١٥] رقم [١٥٥-(١٩٠٧)].

(٢)- ابن ماجه [٢/ ١٤١٤] رقم (٤٢٢٩)، وأحمد في مسنده [١٥/ ٤٤] رقم (٩٠٩٠).

[الاستكثار من النيات في العمل الواحد وضابط النية المجزية]

وما أمكنه من الاستكثار من النيات في فعل، أو ترك، فهو أولى:

-كالجلوس في المسجد -مثلاً- ينوي به القربة؛ لفضل المسجد، والاقتداء بالصالحين، وانتظار الصلاة، وسماع العلم، والاعتكاف -على رأي-.

-وكالأكل والشرب ينوي أن ذلك لدفعِ الضرر عن النفس، والاستقامة على الطاعة، ولِقَرعِ[1] النفس عما لا يجوز، وإظهارِ نعمة الله، واتباعِ السنة.

وهكذا في نية النكاح، ويختص به طلب النسل.

وفي اللباس اتباع السنة، وامتثال ما أمر الله به من ستر العورة، والتجمل الذي يتوجه، وإظهار النعمة، وغير ذلك من النيات الحسنة[2]، وعلى هذا فقس، فما من مباح إلا ويمكن

---

(١)- القَرْعُ: الضرب بالمقرعة، والمراد: منع النفس عما لا يجوز.

(٢)- قال الإمام عز الدين عليه السلام: «حتى إن النية الحسنة قد يصير المباح من جنس القُرب المقربة إلى الله تعالى الموجبة للثواب، وتغلب صورة الواجب إلى المحظور الذي يستدعي العقاب، كمن قصد بالسجود لغير الملك المعبود، وقصد بصلاته أن يقال: صلاة هذا حسنة، أو أن ينال بها إرباً من مآرب الدنيا». [الدر المنظوم: ٤٧٧]. وضابط هذه النية الحسنة هو ما بينه عليه السلام في قوله: «فإن النية الحسنة لا تنفع صاحبها وتفيده إلا إذا تعلقت بالفعل على الوجه الذي شرع، ولو كان حسن النية يفيد مع خلاف ذلك للزم أن يحسن بها =

جعله قربة بمثل هذه النيات، فـ((إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى[(١)])).

وإن أمكن استحضار النية الحسنة الكاملة في المندوبات، والمباحات، على سبيل التفصيل، عند كلِّ فعلٍ، فهو أتمُّ وأفضلُ، وإلا فعلى سبيل الجملة، ولو قبل وقت الفعل، على ما ذكره بعض العلماء -رحمهم الله-، ففيه خير كثير.

وأما الواجبات فنيَّاتها واجبة لازمة، لا بد منها.

ولا ينبغي أن ينوي العبد فيما فعله مجرد حصول الثواب، والهرب من العقاب؛ فإن هذه النية لا تجزيه، ولا تطابق مراد ربه، ولا ترضيه، بل تكون صفة نيته كما تقدم، ثم ليعلم أن الثواب حاصل لا محالة عندها، والعقاب منتفٍ لكن بشرط القبول، فليجتهد فيما يحصل به القبول من الإخلاص، وتجنب المحبطات.

فائدة:[في حسن النية فيما يفوت من المال وكونه من السخاء]

ينبغي للإنسان حسن النية فيما يفوت من ماله، بعلمه، وبغير علمه، والمستحسن له أن ينوي بقلبه -ولا بأس أن يجريه على لسانه وينطق به- ما حاصله:

الفعل القبيح كمن سرق مال الغير ليَسُدّ به فاقةَ الفقر، أو يواسي به المحتاجين، ومعلوم أن ذلك لا يفيد». [الفتاوى باب الاستجمار].

(١)- البخاري [١/ ٦] رقم (١)، ومسلم [٣/ ١٥١٥] رقم [١٥٥-(١٩٠٧)].

اللهم، ما صار من مالي وما أملكه إلىٰ غـيري بحضـوري، أو بغير حضوري، برضاً مني، أو بغيره، ولم يكن لي قصد في مصيره إلىٰ من صـار إليـه، ولا ثبـت في معلومـك أنـه يعـود إليَّ، أو إلىٰ وارثي، في الدنيا، ولا عوضه، فإنه مـن واجـب حـق عـليَّ مـن حقوقك كان أو يكون، فإن لم يكن عليّ حق، أو كان وليس مـن صار إليه ذلك أهلاً له، فصدقة علىٰ الآخذ، تقرباً إليك يا إلهـي، وإحساناً إليه.

وكون هذا من الإحسان والسخاء أمرٌ لا شك فيه، وإذا كان منهما فقد توارد العقل والنقل علىٰ حسنهما؛ كقوله ﷺ: ((في كل كبد حرَّىٰ أجر[1]))، وقوله ﷺ: ((ما جُبِلَ وليُّ الله -عز وجل- إلا علىٰ السخاء، وحسن الخلق[2]))؛ لكن لا إحسان إلا مع حسن القصد، وألّا يعلم المُعطِي استعانة المُعطَىٰ بما يصير إليه علىٰ المعصية، وألّا تجحف العطية بحال المعطي، فمتىٰ كَمُلَت الشروط في العطية فهي المرغَّبُ فيها بالآيات

(١)- الإمام أحمد بن سليمان في حقائق المعرفة [٣٧٦]. وابن ماجه [٢/ ١٢١٥] رقم (٣٦٨٦)، وأحمد في مسنده [٢٩/ ١٢٦] رقم (١٧٥٨٧).

(٢)-المتقي الهندي في كنز العمال [٦/ ٣٩١] رقم (١٦٢٠٦) وعزاه إلىٰ الديلمي عن عائشة.

والأخبار، وتتفاوت في الفضل بحسب حال النية(١)، والعطية(٢)، والوقت(٣)، والشخص(٤)، والحاجة(٥).

[الخلق الثاني:] الجود

قد اختلف في معنى الجود فقيل: بذل الموجود.

وقيل: الإنفاق بحسب التدبير؛ وهو(٦) ما قضى به العقل، والشرع، أو أحدهما كالواجبات ثم المندوبات وما جرت به العادات.

وما قدمه الإنسان لنفسه فكنز موضوع لوقت حاجته.

ومن عرف من نفسه الصبر عند الحاجة إلى الناس، أو عرف بمقتضى جري العادة أنه يقع له خَلَفٌ عما أنفق حَسُنَ منه إنفاق جميع ماله، أو بعضه، حسب ما يَعْرِفُ من حاله.

ومن لم يعرف ذلك من نفسه، ولم يثق به، أبقى قدر كفايته، بعد إخراج الواجب، وعليه في أمر دنياه بالاقتصار على المحتاج.

---

(١)- من حيث كانت حسنة أم لا، ومن حيث الوجوب والندب.

(٢)- من حيث الكم والنوع.

(٣)- من حيث الوقت الذي الحاجة فيه ملحة، فالعطية فيه أفضل مما لو كان الوقت الحاجة فيه أقل إلحاحًا.

(٤)- من حيث الأَوْلى بالعطية؛ فالأقربون أولى من غيرهم، وذوي الحاجة أولى، والمؤمنون أولى، وهكذا.

(٥)- من حيث شدتها؛ فمن كانت حاجته أشد فهو أولى والعطية أفضل. والله أعلم.

(٦)- أي: التدبير.

[الخلق الثالث:] الزهد

هو في الشرع: ترك المباحات التي يخاف من التولع بها أن تحمله على التولج[1] في الشبهات، للمحافظة عليها.

والزهد في الشرع محمود، مندوب، وردت به الأخبار والآثار كقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: ((ألا وإنَّ مَن زهد في الدنيا أراح قلبه وبدنه في الدنيا والآخرة[2]))، وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لمن قال له: دلّني على عمل يحبني الله عليه، ويحبني الناس عليه، فقال: ((أما العمل الذي يحبك الله عليه فالزهد في الدنيا، وأما العمل الذي يحبك الناس عليه فانبذ[3] إليهم ما في يدك من الحطام[4])). إلى غير ذلك مما فيه كثرة.

---

(١)- التولج: الدخول.

(٢)- الإمام المنصور بالله عَلَيْهِ السَّلَامُ في حديقة الحكمة شرح الأربعين السيلقية من حديث فيه طول بلفظ: ((إن الزاهد في الدنيا يريح قلبه وبدنه في الدنيا والآخرة)).

(٣)- فانبذ: النبذ: طرحك الشيء من يدك أمامك أو وراءك. نبذت الشيء أنبذه نبذا إذا ألقيته من يدك، ونبَّذْتُهُ، شُدد للكثرة. ونبذت الشيء أيضا إذا رميته وأبعدته. [لسان].

(٤)- المتقي الهندي في كنز العمال [٣/ ٢٢٤] رقم (٦٢٦٣) وعزاه إلى أبي نعيم في الحلية. الحطام: من الحَطْم: الكسر في أي وجه كان، وقيل: هو كسر الشيء اليابس خاصة كالعظم ونحوه. حطمه يحطمه حطما أي كسره، وحطمه فانحطم وتحطم. والحطمة والحطام: ما تحطم من ذلك. الأزهري: الحطام ما تكسر من اليبيس، والتحطيم التكسير. [لسان].

[في كيفية الزهد]

فينبغي للعبد أن يقتصر من الدنيا على قدر كفايته، حسبما تحتمله نفسه؛ فإن هذا أمر اعتباري إضافي؛ فقد يكون شيء من صفة المعاش زهداً في حق رجل؛ لأنه لا يحتمل دونه، دون آخر؛ لإمكانه الاقتصار على أقل منه، فقد ذكر العلماء -رحمهم الله- جنس هذا في صورٍ؛ منها: أن قالوا فيمن أراد ركوب البحر: إنْ عَرَفَ من نفسه القوة بإعانة الله -سبحانه- له على ذلك فَعَلَ، وإن عرف الضعف تَرَكَ.

وكذا الكلام في التداوي، وطلب الرزق، وغير ذلك، فمَن عرف مِن نفسه الرضا، والصبر على المضرة، والألم، والفقر، وقد أَرْقَتْهُ[(١)] حالته إلى هذه الدرجة الرفيعة الشريفة فالأفضل في حقه ترك التداوي والطلب.

ومَن ضَعُفَ عن ذلك، تداوى، وطلَبَ الشيء من وجهه، مع حسن القصد، والاعتقاد بأن الأمر بيد الله، وإنما هذه أمور اعتيادية، يفعل الله عندها ما يعلم المصلحة فيه، وعليه الرضا بقضاء الله، ومعرفة أنه المحسن على كل حال.

وعليه مع هذه الوظيفة بالاستشعار للموت، وقربه،

(١)-أَرْقَتْهُ: رقَّتْهُ فارتقى، أي: ارتفع وعلا.

والاستعداد له قبل نزوله، ولتسره حسنته لا على وجه العُجْبِ، ولتسوءه سيئتُهُ لا إلى حدِّ القنوط.

[أمور لا زهد فيها]

تنبيه: لا زهد في ثلاث:

- المرأة الحسناء، وإن غالى في مهرها؛ لما في ذلك من تكميل دينه، وهذا ما لم تكن فاتحةً لِباب الدنيا، غير قانعة بالكفاية؛ بل نفسها طامحة إلى استيفاء اللذات، والمطاعم، والملابس، فإن كانت هكذا توجه اجتنابها.

- ولا في استعذاب الماء[1]؛ فقد كان ﷺ يستعذب له الماء من الأمكنة النازحة. قيل: ووجهه: أنه لا يحتاج في ذلك إلى كسب مال، فيخاف منه الوقوع في الشبهات. قلت: مع ما فيه من استدعاء خالص الشكر.

- ولا في تَخَيُّرِ المسكن السليم عن الوباء، الجامع للمرافق؛ إذ لا يحتاج إلى غرامة؛ لأن الأرض لله، إلا أن يكون الدِّين في غيره أكمل، فإن تركه -حينئذ- من الزهد المندوب إليه.

---

(١)- استعذاب الماء: طلب الماء العذب، وعَذُبَ الماء عُذُوبة: ساغ مشربه، أي: سهل مدخله في الحلق.

وما أحسن ما قيل: الزهد في الدنيا راحة، فإنك إذا تأملت لم ترَ تعباً في الدنيا، ولا نصباً، ولا هماً، ولا غماً، ولا كدًّاً، ولا نكداً، إلا وسببه الغالب الضِّنّة بالدنيا، وعدم الزهد فيها، ومصداقه الحديث المتقدم، والله ولي التوفيق.

[الخلق الرابع:] الشكر

يجب على العبد شكر ربه على نعمه التي لا تحصى، غاية جهده بقلبه ولسانه، على الحد اللائق به وعلى ما يصل إليه من النعم بواسطة المخلوقين، مع شكرهم -أيضاً-؛ لأن لهم يداً ظاهرة في نفعه وإعطائه، لكن الشكر لله على ذلك أوجب[١]؛ لأنه خالق الجميع[٢]، الميسر لأسباب ذلك[٣]، الباعث عليه بما وعد من الثواب والمكافأة على الإحسان.

(١)- وعند التأمل تجد أن الله تعالى هو المستحق على الحقيقة للشكر؛ لأنه تعالى المصدر لتلك النعم، والخالق لها، بخلاف المخلوق -الذي عليك شكره- فإنما هو واسطة لإيصال بعض النعم التي حصلت له من الله تعالى إليك.

(٢)- خالق الجميع: أي خالق النعم التي لا تحصى، وخالق المخلوق الذي عليك شكره لإعطائه لك بعضا من تلك النعم.

(٣)- الأسباب: هي: الأسباب التي تجعلك تحصل على تلك النعم بطريق مباشر (دون واسطة)، بأن خلقها فيك، أو بأن أوجدها وأقدرك وأمكنك من نيلها والحصول عليها بنفسك، وكذلك الأسباب التي تحصل بها على تلك النعم بطريق غير مباشر (بواسطة)، كأن يعطيك مخلوق نعمة ما لأنه يطلب الأجر من الله تعالى، فطلبه للأجر منه تعالى سبب غير مباشر لحصولك على النعمة، فالله تعالى هو الميسر لكلا النوعين من الأسباب.

وليشكر ربه[(١)] على ما يبتليه به من الآلام، والغموم؛ لأن فيها من المنافع الأخروية ما لا يكاد يتصوره؛ لكثرته وعظمته، فصار ذلك الابتلاء نعمة منه تعالى في الحقيقة.

ويتضح مما ذكرناه:

أن شكر الله -سبحانه- واجب، في السراء، والضراء، والشدة، والرخاء، وفي كل حال من الأحوال له الحمد والشكر، كذلك، وأبلغ من ذلك، وأضعاف ذلك، كما يحب ويرضى، حسبما هو أهله جل وتعالى.

ويجب -أيضاً- شكر من أحسن إلينا، وأنعم علينا، نعمة دينية، أو دنيوية، من نبيئنا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وأئمتنا، ومشائخنا، ووالدينا، وإخواننا، ومن سائر الناس، فينبغي شكره، ودعاء الله أن يجازيه عَنَّا بأفضل الجزاء، ويحسن إليه عَنَّا أكمل الإحسان.

---

(١)- قال الإمام المنصور بالله عليه السلام: «والبلاء من قبل الله تعالى على وجهين: بلاء فعل واضطرار، وبلاء تعبد واختبار. فبلاء الفعل والاضطرار على وجهين: محنة، ونعمة، ونريد بالمحنة هاهنا: ما تنفر عنه النفوس، وبالنعمة: ما تلتذ به. وأما إذا رجع إلى التحقيق فكل ما جاء من قبله من مكروه، أو محبوب، فهو نعمة حسنة؛ وقد قسم الحكيم سبحانه البلاء في كتابه الكريم كما قسمنا، ومن كتابه العزيز تفهمنا ما فهمنا، قال عز من قائل في ذلك: ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ [الفجر١٥] ...»، إلى قوله: « وقال تعالى في المعنى الثاني من البلوى [أي: ما تنفر عنه النفس]: ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ [الفجر١٦]». [حديقة الحكمة].

[الخلق الخامس:] الصبر

هو من أبلغ خصال الإيمان وأجلِّها وأَنْفَسِها[(١)]؛ وكفى بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّه مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة١٥٣]، وبقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: ((ما أعطي أحد خيراً أوسع من الصبر[(٢)])) رواه البخاري، ومسلم.

وقال عبد الله: «الصبر نصف الإيمان»، وقد رفعه بعضهم[(٣)].

فليصبر العبد: على الطاعات، وعن المعاصي، وليتلق ما ورد عليه من مصائب الدنيا وآلامها وغمومها، ونقص الأموال وتلفها، وغير ذلك بالصبر الجميل، ليفوز بالأجر الجزيل؛ ولو لم يكن الصبر مما يحصل به عظيم الأجر، لكان أرجح من الجزع، وأوفق، وأنفع، وساحته أوسع.

---

(١)- النفيس: نَفُسَ الشيء نَفاسَةً: كَرُمَ، أي: عزَّ وشَرُفَ. والصبر من أعز وأشرف خصال الإيمان. وجعله أمير المؤمنين -صلوات الله عليه- من الدعائم التي يقوم عليها الإيمان، بل أولها في قوله: «الإيمان على أربع دعائم: على الصبر، واليقين، والعدل، والجهاد». [النهج الحكم رقم (٣١)].

(٢)- الأمالي الخميسية للإمام المرشد بالله عَلَيْهِ السَّلَامُ [٢/ ٣٧٤]، والبخاري [٢/ ١٢٢] رقم (١٤٦٩)، ومسلم [٢/ ٧٢٩] رقم [١٢٤-(١٠٥٣)].

(٣)- رواه مرفوعا الإمام المرشد بالله عَلَيْهِ السَّلَامُ في الأمالي الخميسية عن عبد الله [ابن مسعود]، وأحمد في مسنده [١/ ٣٧٤] رقم (٨١٧)، والطبراني في الكبير [٩/ ١٠٤] رقم [٨٥٤٤].

[الخلق السادس:] الذِّكر

قال الله تعالىٰ: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾ [آل عمران٤١]، ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ﴾ [الأحزاب٣٥].

وقيل له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: إن شرائع الإسلام قد كثرت عليّ، فأخبرني بشيء أتشبث به؟ فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: ((لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله[1])). رواه الترمذي، وابن حبان، والحاكم في مستدركه.

[كيف يكون الذكر وبمَ]

وهو: بالقلب، واللسان كتلاوة القرآن، وملازمة الأدعية المأثورة، والأذكار النبوية، في الأوقات المخصوصة، وعند قضاء الحوائج المهمة الدينية، وعند رقة القلب، ونزول العَبْرَة قال تعالىٰ: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة١٥٢]، وعنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - حكاية عن ربه تقدس وتعالىٰ: ((حبب إليَّ من دنياكم ثلاث: بدنٌ صابر، وقلب شاكر، ولسان ذاكر[2])).

وكذا ينبغي المداومة على الاستغفار والاستعاذة؛ فإن في ذلك خيراً كثيراً وكذلك: «لا إله إلا أنت، سبحانك إني كنت من

---

(١)- الأمالي الخميسية للإمام المرشد بالله -عَلَيْهِ السَّلَامُ- [١/ ٤٩٨]، والذكر لمحمد بن منصور المرادي -رضي الله عنه- [١/ ٦] رقم (٩)، والترمذي [٥/ ٤٥٧] رقم (٣٣٧٥)، وابن حبان [٣/ ٩٧] رقم (٨١٤)، والحاكم [١/ ٦٧٢] رقم (١٨٢٢).

(٢)- العجلوني في كشف الخفاء [٢/ ١٨٦] من حديث طويل.

الظالمين»، و«ما شاء الله لا قوة إلا بالله»، و«قالوا حسبنا الله ونعم الوكيل»، و«أفوض أمري إلىٰ الله»، وما أشبه ذلك.

[ومما يحسن من الأذكار]

وإن واظب العبد علىٰ: «آية الكرسي»، و«آخر سورة الحشر[١]»، و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، فقد قيل: إن فيه الاسم الأعظم. وكذا: «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»، فقد قيل: إنها المراد بقوله [تعالىٰ]: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ [خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً]﴾ [الكهف٤٦].

وُجِدَ بخط بعض أئمة العبادة والفضل[٢] -ولا يبعد أن يكون خبراً-: «من لزم سبع كلمات كان شريفاً عند الله

(١)- آخر سورة الحشر قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ(٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ(٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاء الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(٢٤)﴾.

(٢)- هو الفقيه العابد شيعي آل محمد إبراهيم بن أحمد بن علي الكينعي رضي الله عنه، وقد ذكر هذا الأثر في صلة الإخوان لمؤلفه السيد الإمام يحيىٰ بن المهدي بن القاسم عليه السلام- [ص٢٧٥ نسخة إلكترونية]. وذكره عن بعض الصحابة ولم يسمِهِ السمرقنديُّ في تنبيه الغافلين بأحاديث سيد الأنبياء والمرسلين [٤١٧] رقم (٦٤٠).

وملائكته، وغفرت ذنوبه، وإن كانت مثل زبد البحر، ووجد حلاوة الطاعة، وحييَ بخير، ومات بخير:

أولها: أن يقول عند ابتداء كل شيء: بسم الله.

وثانيها: أن يقول عند فراغ كل شيء من عمله: الحمد لله.

وثالثها: أن يقول بعد كل كلام ليس له: أستغفر الله.

ورابعها: أن يقول بعد قوله: «أفعلُ»، أو «لا أفعلُ»: إن شاء الله.

وخامسها: إذا أصابه مكروه أن يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله.

وسادسها: إن يقول عند كل مصيبة: إنا لله وإنا إليه راجعون.

وسابعها: أن لا يفْتُر لسانه من: لا إله إلا الله».

[الخلق السابع:] طهارة الباطن والظاهر

أما تطهير الباطن فالمراد به: تنظيف قلبه من الرذائل كالغل، والحقد للمسلمين، والحسد، والكبر، والرياء، وغيرها من مساوئ الأخلاق، وقد تقدم ذكرها.

وأما تطهير الظاهر فالمراد: تنظيفه من التلوث بالنجاسات؛ فإن المتلوث بها لا يصلح لمناجاة ربه، والعبد مفتقر إلى مناجاة مولاه في كل حال، وفي كل طرفة عين ولحظة؛ ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة٢٢٢].

وفي الحديث: ((ولن يحافظ على الوضوء إلا مؤمن[(١)])))، رواه ابن ماجه، والحاكم.

وفيه: ((الوضوء سلاح المؤمن[(٢)]))، وفيه: ((من أصابته مصيبة وهو على غير وضوء، فلا يلومن إلا نفسه[(٣)])).

والوضوء على الوضوء نور على نور، وبمداومة العبد على الطهارة يوشك أن تتلألأ فيه الأنوار الربانية.

[الخلق الثامن:] لزوم الخلوة

هي: عبارة عن العزلة عن الناس، وعن الشواغل.

وإذا كانت في بيت مظلم فذلك أجمع لنور القلب.

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم: أنه كان يحبب إليه الخلوة قبل النبوة، وكان يتحنث[(٤)] في جبل حراء، الليالي والأيام قبل أن يتنبأ بقدر خمس عشرة سنة.

---

(١)- الأمير الحسين بن بدر الدين عليه السلام في شفاء الأوام [١/ ١٩٥]، وابن ماجه [١/ ١٠١] رقم (٢٧٧)، والحاكم في المستدرك [١/ ٢٢٠] رقم (٤٤٧).

(٢)- صلة الإخوان للسيد الإمام يحيى بن المهدي عليه السلام [٢٨٠].

(٣)- صلة الإخوان للسيد الإمام يحيى بن المهدي عليه السلام [٢٨٠].

(٤)- الحنث: الخلف في اليمين، وهو من الحنث، أي: الإثم، وفلان يتحنث من كذا: أي يتأثم منه، يفعل فعلا يخرج به من الحنث، وهو الإثم والحرج، ويتحنث: يتعبد لله، وهذا من الألفاظ التي يخالف فيها معناها لفظها، مثل: يتنجس إذا فعل فعلا يخرج به من النجاسة، كما يقال: فلان يتأثم ويتحرج إذا فعل فعلا يخرج به من الإثم والحرج. [عن لسان العرب].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم لـمن قال له: أيُّ الناس أفضل؟: ((مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله)) قال: ثم من؟ قال: ((رجل معتزل في شعب من الشعاب يعبد ربه))، وفي رواية: ((يدع الناس من شره[١])) رواه البخاري، ومسلم.

[لماذا العزلة]

وإنما فضلت العزلة؛ لأن الناس تأنس إلى الناس، وإلى اللهو واللعب، فإذا حبسها العبد عن ذلك، انْقَمَعَتْ حدَّتُها[٢]، ولانت شدتها، وحينئذٍ، يتنور القلب، ويظهر برهانه، عن عليٍّ عليه السلام: (العبادة حرفة، حانوتها الخلوة[٣])، أو كما قال. ومن حبب الله إليه الخلوة فقد استمسك بعمود الإخلاص.

واعلم أن الناس في التمكن منها على درجات، وقلَّ من يستطيع الخلوة التامة المستمرة، ولكنه ينبغي أن لا يمنع العبد

(١)- أمالي أبي طالب عليه السلام [٤٨٠]، والبخاري [٤/ ١٥] رقم (٢٧٨٦)، ومسلم [٣/ ١٥٠٣] رقم [١٢٢-(١٨٨٨)].

(٢)- انقمعت: ذَلَّتْ، قَمَعْتُهُ فَانْقَمَعَ، أي: كففته فكفّ. والحدة: ما يعتري الإنسان من النزق والغضب، هذا المذموم منها، ومنها المحمود وهو الذي بمعنى: النشاط والسرعة في الأمور والمضاء فيها مأخوذ من حد السيف، والمراد منه: المضاء في الدين والصلابة والمقصد إلى الخير. ومن الحدة يقال: فلان حاد الملامح، أي: ملامح وجهه يظهر فيها الغضب والنزق خِلْقَةً لا تصنعا أو تكلفا.

(٣)- صلة الإخوان للسيد الإمام يحيى بن المهدي -عليهما السلام- [٢٨١] نسخة إلكترونية.

[من[١]] الأخذ منها بنصيب، وإن تعذر التمام في حقه؛ فإن القليل خير من العدم، ولو لم يمكنه إلا ساعة من يومه، أو ليله.

وعلى الجملة[٢] فلتكن العزلة على ذُكْرٍ منه، وليحضر ذهنَهُ أن مخالطة الناس لا تأتي بخير في الأغلب، وأنَّ لزوم الخلوة أشفى لقلبه، وأذكر لذنبه، وأقرب إلى رضا ربه.

[من تصلح له الخلوة]

تنبيه: هذا الذي ذكرنا من الحث على الخلوة، ولزومها، إنما هو في حق مَنْ قد أحرز من العلم الديني[٣] ما يحتاج إليه في دينه.

وأما الجاهل فحاجته إلى الخلطة للتعلم أكثر منها إلى العُزلة، والله أعلم.

[الخلق التاسع:] مجالسة الصالحين

قد تقدم ما في الخلوة من المصلحة، وأنها ربما لا تمكن، فإذا لم يتمكن منها العبد، أو لم تسعده نفسه إليها، فعليه بمجالسة أهل الصلاح؛ فإنه لا بد للمجالس أن يكتسب من قرينه ومجالِسِه،

---

(١)- ليس في (أ): «من».

(٢)- في (أ) و(ب): «وبالجملة».

(٣)- وعلى رأسه: العلم بالله تعالى وبصفاته وما يجب له وما يستحيل وما يجوز، وهو المعبر عنه بأصول الدين.

ويأخذ من خلائقه وطرائقه، قصد إلىٰ ذلك، أو لم يقصد[(١)].

فلذلك، ينبغي أن يعمد إلىٰ من تُرتضىٰ خليقته، وتحمد طريقته، فيجعله قرينه وأنيسه، وخليطه وجليسه، ليكون أخذه من الطباع الحميدة، والطرائق السديدة؛ ولعل الجليس الصالح خير من الوحدة.

وليحذر من مجالسة من لا تقوىٰ له، ولا صلاح؛ فإن ذلك من دواعي الشر؛ قال صلى الله عليه وآله وسلم: ((إنما مثل الجليس الصالح، وجليس السوء؛ كحامل المسك، ونافخ الكير[(٢)]، فحامل المسك: إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد ريحاً طيباً، ونافخ الكير: إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة[(٣)])) رواه البخاري، ومسلم.

---

(١)- واكتساب الـمُجَالِس من الجليس -أي جليس- دون قصد مما يصدقه الواقع، ولذلك يجب التنبه إليه، فالكثير من الناس غافل عنه؛ لأن التأثر يصل إلىٰ مستوىٰ ونوع الكلمات والألفاظ التي نتكلم بها، بل ويصل إلىٰ إشارات الأعين وإيماءات الوجوه.

(٢)- المسك: نوع من الطيب يستخرج من الغزلان، والكير آلة تصنع من الجلد يستخدمها الحداد لنفخ النار، ويحذيك: يعطيك. هي في البخاري ومسلم يحذيك -بالحاء والذال لا بالجيم والدال - قال في الصحاح: أحذيته من الغنيمة إذا أعطيته منها.

(٣)- أمالي الإمام أبي طالب عليه السلام [٦٧٠]، والبخاري [٣/ ٦٣] رقم (٢١٠١)، ومسلم [٤/ ٢٠٢٦] رقم [١٤٦-(٢٦٢٨)].

[الخلق العاشر:] الصمت

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: ((من صمت نجا[(١)])).

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لمعاذ وقد قال له: يا نبي الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ -مستبعداً لذلك، أو متعجباً منه-: ((ثكلتك أمك، وهل يكبُّ الناس على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم[(٢)])).

وعنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: ((الصمت نصف العبادة[(٣)])).

وعنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: ((من وقاه الله شر اثنين وَلَجَ الجنة: ما بين لَحْيَيْهِ، وما بين رجليه[(٤)])). رواه مالك.

وقيل: الصمت حُكْمٌ، وقليل فاعله[(٥)]. وقيل: العبد إذا سكت عن فضول الكلام تكلم القلب، ونوره الله، فاشتغل

---

(١)- الاعتبار وسلوة العارفين للإمام الموفق بالله -عَلَيْهِمَا السَّلَامُ- [٣٦٨] رقم (٤٤٣)، والترمذي [٤/ ٦٦٠] رقم (٢٥٠١)، وأحمد في مسنده [١١/ ١٩] رقم (٦٤٨١).

(٢)- الاعتبار وسلوة العارفين للإمام الموفق بالله -عَلَيْهِمَا السَّلَامُ- [٣٦٨] رقم (٤٤١)، والترمذي [٥/ ١٢] رقم (٢٦١٦)، وابن ماجه [٢/ ١٣١٤] رقم (٣٩٧٣). الثُكْل كقُفْل: فَقْدُ الأمِّ لولدها، وثكلتك أمك: فقدتك.

(٣)- صلة الإخوان للسيد الإمام يحيى بن المهدي عَلَيْهِ السَّلَامُ [٢٨١]. وفي إحياء علوم الدين للغزالي [٣/ ٨٠]: ((الفكر نصف العبادة)).

(٤)- الأحكام للإمام الهادي عَلَيْهِ السَّلَامُ [٢/ ٥٤٨]، والإمام أبي طالب في الأمالي عَلَيْهِ السَّلَامُ [٦٢٧]، ومالك في الموطأ [٢/ ٩٨٧] رقم (١١)، والترمذي [٤/ ٦٠٦] رقم (٢٤٠٩).

(٥)- كذا في (ب)، وفي (أ): «حكمة»، والحكم -أو الحكمة- هنا: بمعنى العلم والفقه، وتفسيره ما في القيل التالي الذي ذكره الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ. وقليل فاعله: أي قليل فاعل الصمت.

بالطاعة، وذكر وفكر. وقيل في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ [لقمان١٢]: المراد: الصمت إلا عن المهم.

[من محاسن الصمت وفضائله]

ومن محاسن الصمت، وفضائله: السلامة مما فشا وانتشر، وعمَّ الورىٰ والبشر، إلا من عصمه الله -وقليل ما هم- وهو الوقوع في الغيبة، والتلوث بدرن النميمة، فإن هاتين الرذيلتين، الموبقتين، -ولا سيما الغيبة- لا يكاد قليل الصمت يسلم منهما، ومن التضمخ بهما، ولا شك في قبحهما، وعظم موقعهما في العصيان؛ فإنه شأن نطق به القرآن، وتكاثرت فيه الأخبار، وورد فيه من الترهيب، والوعيد الشديد، ما لا يقدر قدره، فنعوذ بالله من فرطات اللسان، وهفوات الجنان، وكفىٰ بقوله تعالىٰ -في الغيبة-: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات١٢]، وما تضمنته هذه الآية الكريمة من تقبيح هذه الخصلة الذميمة، وتشنيعها، وتهجينها، وتفظيعها.

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: ((إن الربا نيّف وسبعون باباً، أهونهن بابا من الربا مثل مَن أتىٰ أُمَّهُ في الإسلام، ودرهم ربا أشد من خمسة وثلاثين زنية، وأشد الربا، وأربا الربا: انتهاك عرض المسلم،

وانتهاك حرمته[(١)])). رواه البيهقي، وغيره.

وقوله تعالىٰ في النميمة: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّاء بِنَمِيمٍ﴾ [القلم١١]، وما في سياق هذه الآية العظيمة من تعظيم قبح النميمة، حيث نعيت[(٢)] علىٰ أشد الناس كفراً، ووسِّطَت بين أوصافه الذميمة، ولم يغفل ذكرها في جنب كفره، وعتوه، ومنعه للخير، وغلوه. وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: ((لا يدخل الجنة نمام[(٣)])). رواه البخاري، ومسلم، وغيرهما.

[مصائب فاشية]

ومن المصائب في الدين: أن الوقوع في الأعراض، والاغتياب المحض، قد فشا في الناس، فلا يكاد يخلو منه بر ولا فاجر، ولا

---

(١)- البيهقي في شعب الإيمان [٩/ ٨٢] رقم (٦٢٨٩) والطبراني في الكبير [١٣/ ١٧١] رقم (٤١١) بألفاظ متقاربة، وقريب من رواية الإمام: لابن أبي حاتم في علل الحديث [٣/ ٦٦٠] رقم (١١٧١).

(٢)- نعيت علىٰ الرجل أمراً إذا عبته به ووبخته عليه. تمت نهاية

(٣)- الأمالي الخميسية للإمام المرشد بالله عليه السلام [١/ ٦٤]، والاعتبار للإمام الموفق بالله عليه السلام [٣٧٤] رقم (٤٥٦)، والبخاري [٨/ ١٧] رقم (٦٠٥٦) ومسلم [١/ ١٠١] رقم [١٦٩-(١٠٥)]. في بعض الروايات: ((نمام))، وفي بعض: ((قتات))، وهو النمام.

عالم ولا جاهل؛ بل قد تمكن الشيطان في التدخل من هذه الجهة، واجلب بخيله ورجله من هذه الوجوه، فيا مصيبتاه.

نفي الخواطر الرديئة

قال تعالى -حاكياً عن الشيطان-: ﴿ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف١٧]، وعنه صلى الله عليه وآله وسلم: ((ليس أحد إلا ومعه ملك، وشيطان، فلمة الملك إيعادٌ بالخير، ولمة الشيطان إيعادٌ بالشر(١)))، وعليه قوله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاء﴾ [البقرة٢٦٨].

قيل: والخواطر(٢) أربعة:

- أولها: خاطر الحق -سبحانه- يقع في القلب بلا سبب؛ فيطمئن به. ومنه نوع آخر، وهو الإلهام، وعليه [قوله تعالى]: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس٨].
- وثانيها: خاطر القلب، ومنه [قوله تعالى]: ﴿وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون٦٠]؛ أي: مطمئنة، منطلقة من الشك والريب.

---

(١)- الإمام المرشد بالله عليه السلام في الأمالي الخميسية [١/ ٤٠٥] عن عبد الله موقوفا، وأبو داوود في الزهد [١/ ١٦٤] رقم (١٦٤) عن عبد الله موقوفا، والبزار في البحر الزخار [٥/ ٣٩٤] رقم (٢٠٢٧) عنه مرفوعا. واللمة: الخَطْرَةُ تقع في القلب.

(٢)- راجع الخواطر في هامش القسم الأول من المقدمة.

- وثالثها: خاطر الملك، وهو الذي يَثْلُجُ به قلبُ المؤمن ويطمئن؛ كما في الأثر: كان صلى الله عليه وآله وسلم أجود الناس، وكان أجود ما يكون في شهر رمضان، حين يلقاه جبريل عليه السلام، فكان يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فَلَرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين يلقاه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة(١).
- ورابعها: خاطر الشيطان والنفس، ولا يحدث الشيطان في القلب إلا الوسوسة؛ بأن يدعو إلى الضلالة، فإذا دعاه إلى ذنب، فدافعه العبد بالمجاهدة، دعاه إلى ذنب آخر. وله لطائف(٢) في الإضلال، فيضل كلا بما يليق به، والنفس توافقه، فتمني صاحبها بنحو: الأيام والأعوام كثيرة، فتعلم الآن، وعسى أن تعمل بذلك في آخر عمرك، إلى أن تأتيه المنية بغتة.

قال بعضهم: جاءني الشيطان لما لزمت الخلوة، فقال لي: إنك رجل عالم، وعلمك بالانقطاع عن الناس يذهب، فدافعته،

---

(١)- البخاري [١/ ٨] رقم (٦) ومسلم [٤/ ١٨٠٣] رقم [٥٠-(٢٣٠٨)].

(٢)- اللطائف: جمع لطيفة، وهي ما دقَّ وصَغُرَ، ضد ما جلَّ وكبر، والمراد: أن له -لعنه الله- مداخل إلى الإنسان صغيرة دقيقة تكاد تكون خفية يحتاج معها الإنسان أن يكون فطنا يقظا منتبها لها على الدوام؛ لئلا يأتيه اللعين من ناحيتها.

فجاءني من طريق آخر، فقال: إنك رجل عالم، فلو جمعت كتاباً، وسميته: حبل الوريد على المريد، كان ذخراً لك في الدنيا والآخرة، فهممت بذلك، فنهاني الشيخ عن ذلك، وقال: هذا الشيطان يريد أن يشوش عليك الخلوة فاحذره.

[الخلق الحادي عشر: الإقلال من النوم

النوم أحد الميتتين، وهو تضييع للعمر، وتفويت للحياة التي هي مزرعة الآخرة.

ويكفي، بل يزيد على الكفاية أن يقتصر على نوم ثلثي الليل، وهو ثلث العمر، وكفى بتضييع ثلثه.

ولا ينبغي نوم النهار، إلا لمن يقوم الليل، فإنه لقيام الليل كالسحور لصيام النهار، ومن المقت أن يتسحر من لا يصوم.

ولا ينبغي لمن غلبه النوم وهو في ذكر، أو صلاة، أو قراءة، فشوش عليه، أن يغالبه بل ينام حتى يعقل ما يقول.

واعلم أن النوم راحة البدن، وأن المجاهدة إتعابه، فإذا هجر العبد النوم والاستراحة ذابت الجوارح؛ فحيي القلب، وارتفع عنه حجاب الشهوات، فنال بذلك خيراً كثيراً(١).

---

(١)- ومن الإرشادات التي يمكنك اتباعها مراعيا ما عليك فعله من الأعمال الدينية والدنيوية، ما يلي:

- أن تجعل لنفسك موعدا معينا ثابتا تأوي فيه إلى فراشك، فإن موعد النوم الثابت أمر هام بالنسبة للنوم الهانئ الطيب، وهذا سيساعد كثيرا في انضباط (ساعة) جسمك ودقتها.

=

[الخلق الثاني عشر]

المحافظة على الأمر الوسط في الطعام والشراب

بأن لا يشبع شبعًا مفرطًا، ولا يجوع جوعًا مفرطًا؛ ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ﴾ [الأعراف٣١].

والأخبار والآثار في ذم الشبع كثيرة عنه صلى الله عليه وآله وسلم: ((إذا أسكنت كَلَبَ الجوع برغيف فعلى الدنيا العفا[(١)])) قيل: وفي هذا الخبر تعيين قدر المطعوم.

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم: ((إن أكثر الناس شبعاً في الدنيا أكثرهم جوعاً في الآخرة[(٢)])). رواه ابن ماجه، وغيره.

- وأن تحصل على مقدار النوم الذي تحتاج إليه حتى تشعر في الصباح بالراحة والانتعاش.
- وأن تتعرف بنفسك على مقدار النوم الذي تحتاج إليه أنت شخصيا، فإن من الناس من يمكنه الاكتفاء بالقليل من النوم، كما أن منهم من يحتاجون إلى مقادير أكبر من النوم.
- وأن تنام في مكان هادئ جيد التهوية، على فراش ليس لينا وطريا بدرجة زائدة.
- وأن تتجنب النوم نهارا، إن كان نومك بالليل مضطربا.
- وأن تنهض من فراشك إن وجدت نفسك غير قادر على النوم، وافعل أي شيء كالقراءة، إلى أن تشعر بالتعب.
- وأن تتجنب في ساعات المساء: الإفراط في شرب المنبهات كالقهوة والصافي والشاي. والأكل الثقيل، والأعمال المجهدة ذهنيا وجسميا.

(١)- صلة الإخوان للسيد الإمام يحيى بن المهدي عليه السلام [٢٨٧]، باختلاف يسير، وبدل: العفا: ((الدمار))، والبيهقي في شعب الإيمان [١٣/ ١٢] رقم (٩٨٨١)، والمتقي الهندي في كنز العمال [٣/ ٣٩٠] رقم (٧٠٨٦). والعفا: الاندراس؛ أي: الدمار. وكَلَبُ الجوع: شدته.

(٢)- المختار من صحيح الأحاديث والآثار للسيد العلامة محمد بن يحيى حفظه الله تعالى[٨٥٣] وعزاه إلى مجموع الإمام زيد بن علي -عليهما السلام- [٤٨٠]. وابن ماجه =

وعنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: ((ليؤتين يوم القيامة بالعظيم الطويل الأكول الشـروب، فلا يزن عند الله جناح بعوضة، اقرءوا إن شئتم: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً﴾ [الكهف١٠٥]))(١). رواه البيهقي، والبخاري، ومسلم، باختصار.

[آفات الشبع ومحامد الجوع]

ولِعِظَمِ موقع الشبع في المضـرة قيل: الآفات كلها مجموعة في الشبع، والخيرات مجموعة كلها في الجوع.

وعن أمير المؤمنين علي عَلَيْهِ السَّلَامُ، في قدر آفات الشبع، إنهـا سـبع وعشرون آفة(٢):

يقسي القلب، يضر الجسد، يذهب البهاء، ينسـي ذكر الرب، يمحق الدين، يذهب اليقين، ينسي العلم، وفيه ترك الأدب، وركوب المعاصي، واحتقار الفقراء، ونقصان العقل، وذهاب السخاء، وزيادة البخل، وثقل النفس، وزيادة الشهوات، وقوة الجهل، وكثرة الكلام، والفضول، وحب الدنيا، وكثرة

[٢/ ١١١٢] رقم (٣٣٥١)، والترمذي [٤/ ٦٤٩] رقم (٢٤٧٨).

(١)- البيهقي في شعب الإيمان [٧/ ٤٦١] رقم (٥٢٨٢)، والبخاري باختلاف يسير [٦/ ٩٣] رقم (٤٧٢٩)، وكذلك مسلم [٤/ ٢١٤٧] رقم [١٨-(٢٧٨٥)].

(٢)- صلة الإخوان للسيد الإمام يحيى بن المهدي عَلَيْهِ السَّلَامُ [٢٨٧]، وعزاه للديلمي في التصفية.

الضحك، ويقل الإخلاص، [ويهيج عادة السوء[١]]، ويطيل النوم، ويكثر الغفلة، ويفرق الأصحاب، ويكثر الغم، [مع طول الحساب يوم القيامة[٢]]. إلى غير ذلك من الرذائل.

وفي الجوع محامد بعدد هذه، وهي أضدادها والشبع مانع من العلم، والعمل، وأجمعت الحكماء والزهاد على أن الجوع سبب نور القلب، والشبع مانع عنه، وما مرض قلب بأشد من القسوة، وما صحت نفس بمثل الجوع.

ووُجِدَ بخط بعض أئمة العبادة: قال داوود -عليه السلام-: لَأَنْ أترك لقمة من عشائي أحب إليَّ من قيام ليلة. انتهى.

وقد قيل: الجائع نظيف خفيف، والشابع عاكف على الكنيف[٣]. الشابع يدور حول الخلاء، والنجاسات، والجائع حول المساجد والجماعات.

---

(١)- ما بين المعقوفين موجود في (أ) تصحيحا، وليس في (ب)، ولا في الصلة.

(٢)- ما بين المعقوفين موجود في (أ) تصحيحا، وليس في (ب)، ولا في الصلة.

(٣)- الكنيف: كل ما سترك فهو كنيف، والمراد به هنا: الخلاء؛ أي: مكان قضاء الحاجة كالحمَّام. والمراد من عكوف الشابع على الكنيف: أنه يكثر دخوله إلى الخلاء لقضاء الحاجة.

[في الطعام الحرام]

تنبيه: وكما أن الشبع مذموم مشؤم، فأشنع منه وأدخل في الذم أن يكون مطعم الإنسان ومشربه، مما لا يتحقق حِلَّه، فليجتهد كل الاجتهاد في توقي الشبهات فيما يتناوله من طعام وشراب، فإنه بئس الطعام الحرام؛ وهو من الحواجز بين العبد وربه، المانعة من قبول دعائه، وتلبية ندائه، نسأل الله العصمة، وأن يكفينا بحلاله عن حرامه، ويغنينا بفضله عمن سواه، بكرمه وإحسانه.

[الخلق الثالث عشر: اللجأ إلى الله عز وجل]

هو: اعتقاد العبد أن لا حول له عن المعصية، ولا قوة له على الطاعة، إلا بالله -سبحانه-، وبعنايته وهدايته، فيطلب ذلك منه بقلبه، ولسانه، وفي جميع أزمانه، ولا يثق بنفسه، ولا بغيره، طرفة عين، لكن بالله، فليفوض أمره إليه، وليتوكل عليه.

وكذلك في أمر دنياه، من رزقه، وإعانته، وكلايته، وحمايته.

وقد ورد بذلك القرآن العظيم، نحو: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾ [غافر٤٤]، ﴿وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ﴾ [آل عمران١٧٣].

وقريب مما ذكر: التسليم لله، والرضا بالله؛ قال تعالىٰ: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً﴾ [الأحزاب٢٢]، ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ﴾ الآية.[لقمان٢٢].

ويدخل في التسليم: التفويض(١)، والتوكل(٢)، والانقطاع، والرضا بالقضاء؛ من فقر، ومرض، وحزن، وقبض، وغير ذلك.

فإذا حصلت هذه الخصلة الشريفة ظهرت شمس القلب، وانهزمت عساكر الشك والريب، نسأل الله التوفيق.

---

(١)- **التفويض**: قال الإمام المنصور بالله -عليه السلام- في معناه: «أن تعلم أن يده في مالك وولدك وسبدك ولبدك، وطارفك وتليدك، أولى من يدك، فلا تعقب فعله في ذلك - وإن خالف رضاك وجانب هواك- بكراهة أبداً، وإن لم يدع لك مالا ولا ولدا فهو خير خلف من كل فائت، وبقية من كل هالك؛ فمن لم يفوض أمره إلى الله على هذا الوجه لم يكمل إيمانه، وظهر عصيانه». [حديقة الحكمة النبوية].

(٢)- **التوكل**: قال الراغب في المفردات: «التَّوْكِيلُ: أن تعتمد على غيرك وتجعله نائبا عنك، والوَكِيلُ: فعيلٌ بمعنى المفعول. قال تعالى: ﴿**وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا**﴾ [النساء ٨١]، أي: اكتفِ به أن يتولّى أمرك، ويَتَوَكَّلَ لك، وعلى هذا: ﴿**حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ**﴾ [آل عمران ١٧٣]» ... «والتَّوَكُّلُ يقال على وجهين، يقال: تَوَكَّلْتُ لفلان بمعنى: تولّيت له، ويقال: وَكَّلْتُهُ فتَوَكَّلَ لي، وتَوَكَّلْتُ عليه بمعنى: اعتمدته، قال عزّ وجلّ: ﴿**فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ**﴾ [التوبة ٥١]، ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق ٣]. وقال الإمام المنصور بالله عليه السلام في معناه: «أن تعتمد في كل مهم عليه وترد كل ملم إليه وتضع يدك في يديه ولا ترجو لكل شديدة سواه ولا توالي خوفا من المشاق عداه، تؤثر إن أعطاك لترضي وليه، وتشكر إن منعك لتكبت عدوه، ولا تطلب شيئا من رزقه بمعصيته ولا تعصه -عز وعلا- لرضى أحد من خلقه، ولا تقصد في شيء من عبادته ولوازم تكليفه فهذا معنى التوكل عندنا، وبه يسمى العبد متوكلا شرعا». [حديقة الحكمة النبوية]

[الخلق الرابع عشر:] الرجاء للّه

ينبغي للعبد أن يكون راجياً لربه -سبحانه- في كل حالاته، منتظراً لفرجه، ورحمته، ولطفه، وإحسانه، ويعلمَ أنه أرحم به من والديه، وأقرب إليه من ساعديه، وأنه يثيب على الطاعة عند القبول، فليجتهد في إصلاحها، وأنه يغفر الذنوب عند التوبة، فليسارع إليها.

[في حسن الظن باللّه تعالى]

وليحسن العبد الضعيف الظن بهذا الرب اللطيف، خاصة قرب الموت؛ فعنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: ((لا يموتن أحدكم إلا وهو محسن الظن بربه(١))).

ولكن من شرط حسن الظن الاجتهاد في الطاعة، والتحرز عن المحبطات.

[الخلق الخامس عشر:] الخوف من اللّه

هو خليقة محمودة، حميد العاقبة؛ فإنه: ((من خاف البيات أدلج(٢)، ومن أدلج بلغ المنزل)).

---

(١)- مسلم [٤/ ٢٢٠٥] رقم [٨١-(٢٨٧٧)]، وأبو داوود [٣/ ١٨٩] رقم (٣١١٣).

(٢)- الإمام عبد الله بن حمزة عَلَيْهِ السَّلَامُ في حديقة الحكمة شرح السيلقية ، والترمذي [٤/ ٦٣٣] رقم (٢٤٥٠)، والبيهقي في شعب الإيمان [٢/ ٢٦٦] رقم (٨٥٥).
والبيات: مِنْ بَيَّتَ العدوَّ: إذا أوقع به ليلًا. وأَدْلَجَ: سار ليلا، كله أو من أوله أو من =

وقد مدح الله خائفيه، وأثنى عليهم، بما فيه كثرة، وجعل خوفه من أوصاف أصفيائه الملائكة المقربين.

ومن حكم أمير المؤمنين -:- المأثورة عنه: (عليكم بخمس كلمات: لا يرجون أحدكم أحداً إلا ربه، ولا يخافن إلا ذنبه، ولا يستحي [يستحيين] إذا لم يعلم شيئاً أن يتعلم، ولا يستحي [يستحيين] إذا سئل عما لا يعلم أن يقول: الله أعلم، وعليكم بالصبر؛ فإن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد[1]).

آخره. ومن خاف البيات أدلج: من خاف أن يوقع به عدوه وهو نائم ليلا لا يدري ما يمكن أن يحدث به في الظلام الذي يخفي ما يخشاه، ترك النوم وسار في الليل ليأمن عدوَّهُ ويصل إلى مأمنه، والمراد: أن من خاف الله تعالى عمل بمقتضى هذا الخوف من المبادرة بالتوبة والمسارعة في الأعمال الصالحة؛ فإنه لا يأمن بقاءه على قيد الحياة، فقد يعاجله الموت في أي لحظة.

(١)- نهج البلاغة [الحكم: (٧٧)]. قال نجم آل الرسول عليه السلام في الخوف: «أما ما هو: فمعرفة الذنب، وشهادة الرب. وأما كيف هو: فوجل القلب، ودمع العين؛ فإن لم تكن كذلك فلست بخائف فيما قد علمت، وأما الذي لم تعلمه فعليك منه الرهبة والتقوى، فإذا اتقيت الله لم يجدك حيث نهاك، وإذا خفته لم يفقدك حيث أمرك، فإن الله يراك، ويعلم سرك ونجواك، ويسمع كلامك، فهنالك ترهبه وتخافه حتى كأنك تراه. [مجموع الإمام القاسم الرسي: العالم والوافد (٢/ ٣٧٨)]. وعليه، فالمخوف: هو الذنب، وهو: إما ذنب واقعته، وإما ذنب لم تواقعه، فالأول: يلزمك منه التوبة، والثاني: يلزمك منه الاحتراز، والخوف في الأمرين متوقف على معرفة ما يكون ذنبا فتخافه، وما ليس بذنب فتأمن جانبه، وقبل معرفة الذنب معرفةُ الرب، وأنه عالم بك، شاهد لما تفعله. اللهم اجعلنا من العلماء الحلماء العاملين، الخاشين لك الخائفين منك الراجين لرحمتك، بحق محمد وآله صلى الله عليه وآله وسلم.

[الخلق السادس عشر:] تقديم الأهم فالأهم

الأهم: أمر الدين؛ فليقدمه على أمر الدنيا، والمقدم من أمر الدين:

- تحقيق صحة العقيدة؛ بتوحيد الله وتحميده، واعتقاد اختصاصه بصفات الكمال، وتجرده عن النقائص كلها، وتنزيهه عن مشابهة المحدثات، وفعل المقبحات، والكذب فيما قاله، والخلف فيما وعد به أو توعد.
- وأن يدين الله بصدق رسوله، وعموم رسالته، ومحبة محقي أصحابه، وتفضيل أهل بيته ومودتهم، وتقديمهم، ورعاية حقهم.
- وليتبرأ إلى الله من كل دين غير دين الإسلام، وعقيدة غير مطابقة، وبدعة في الدين ليست بلائقة.
- ثم يتعلم من الشريعة ما أمكنه، ويتأدب بآدابها، ويرجع فيما التبس عليه إلى أهل المعرفة، ويوطن نفسه على ذلك، والعمل بمقتضاه.
- ولا يغفل عن علم الطريقة، فإنها العلم النافع.

فإذا اعترض واجب ومندوب قَدَّمَ الواجب، وإذا اعترضت له واجبات متعددة قَدَّمَ الأهم فالأهم كفرض العين على

الكفاية، والمضيق على الموسع.

[المقصود الدين لا الدنيا]

وليعلم أن المقصود هو الدين، لا الدنيا، فلينزلها منزلتها، فإنها دار مجاز، والآخرة دار قرار، فلا يشغل بالدنيا قلبه، إلا ما كان منها للدين، فإنه دين بشريطة القصد الصالح، وأخذ الشيء من وجهه ووضعه في وجهه، والإقلال والقناعة ما أمكن.

ولا يشتغل بشيء وهو يحسن أفضل منه وله غُنْيَةٌ عن المفضول، فقد تقدم ما ورد في الدنيا، والترغيب عنها، وكفى به زاجراً لِأولي النهى، وموقظا لذوي النومة عن النظر للانتهاء.

ثم ليكن الإنسان وصي نفسه إن عقل، فلا يتغافل عن تخليصها، والتفقد لأحوال دينه، وليلزم الوسط مما يحتمله، ويجانب الإفراط، والتفريط[1]، ولا يؤخر شغل يومه إلى غده، ولا وقت إلى ما بعده، فمن المستهجن تأخير العمل، وإطالة الأمل.

عن عبد الله بن عمر، قال: أخذ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بمنكبي، فقال: ((كن في الدنيا كأنك غريب، أو عابر سبيل[2])). وكان

---

(١)- الإفراط: المجاوزة للحد، يقال: أفرط في حبه: إذا زاد وجاوز الحد فيه. والتفريط: التقصير أو التضييع، يقال فرَّط في عمله: إذا قصَّر فيه أو ضيعه.

(٢)- حديقة الحكمة النبوية للإمام عبد الله بن حمزة عليه السلام، والاعتبار للإمام الموفق بالله عليه السلام =

ابن عمر يقول: إذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك. رواه البخاري، ورواه الترمذي، ولفظه: وقال لي: ((يا ابن عمر، إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء، وإذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح، وخذ من صحتك قبل سقمك، ، ومن حياتك قبل موتك، فإنك لا تدري يا عبد الله، ما اسمك غداً[(١)])).

عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: ((هل تدرون ما هذه وهذه، ورمى بحصاتين؟)) قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: ((هذا الأمل، وذلك الأجل[(٢)])). رواه الترمذي.

[ومن الأهم إصلاح أمر خاصتك ثم أمر العامة]

ولا يشتغل بأمر العامة إلا بعد صلاح أمر خاصته[(٣)]، فمتى

رقم (١٦)، والبخاري [٨/ ٨٩] رقم (٦٤١٦)، والترمذي [٤/ ٥٦٧] رقم (٢٣٣٣).

(١)- هذا بقية الحديث السابق في الحديقة والاعتبار وعند الترمذي، وليس عند البخاري.

(٢)- الترمذي [٥/ ١٥٢] رقم (٢٨٧٠)

(٣)- خاصتك: من اختصوا بك دون غيرك، وهم أهلك ثم أقرباؤك، قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه١٣٢]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم٦].

فرغ من خاصته، وأمكنه السعي في إصلاح أمر من أمور المسلمين، قريبٍ، أم بعيدٍ، فليفعل؛ فإن في ذلك فضلًا كبيرًا، وأجرًا كثيرًا يطول ذكره.

وهو على الجملة معلوم من ضرورة الدين، قال ﷺ: ((من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلمًا ستره الله يوم القيامة[(١)])). رواه البخاري ومسلم، وغيرهما.

[تحذير من الدنيا]

وليحذر من الدنيا، ومن طلبِ ما يزيد على الكفاية فيها؛ فإنها أَسْحَرُ من هاروت وماروت، وليجعل الموت نصب عينيه كما ورد وذكر متقدمًا، قال ﷺ: ((كفى بالموت واعظًا[(٢)])).

وقيل لنوح -عَلَيْهِ السَّلَام-: يا أطول الأنبياء عمرا، كيف وجدت الدنيا؟ قال: (كدار لها بابان، دخلت من أحدهما، وخرجت من الآخر).

وعن ابن عباس أنه قال: ما انتفعت ولا اتعظت بعد رسول الله ﷺ بمثل كتاب كتبه إليَّ أمير المؤمنين -يعني عليًّا عَلَيْهِ السَّلَام،

(١)- الأمالي الخميسية للإمام المرشد بالله عليه السلام [٢/ ٣٥١]، والبخاري [٣/ ١٢٨] رقم (٢٤٤٢)، ومسلم [٤/ ١٩٩٦] رقم [٥٨-(٢٥٨٠)].

(٢)- الاعتبار للموفق بالله عليه السلام رقم (٣١١)، ومسند الشهاب القضاعي [٢/ ٣٠٢] رقم (١٤١٠)، والبيهقي في شعب الإيمان [١٣/ ١٣٦] رقم (١٠٠٧٢).

قال: (أما بعد، فإن المرء يسرُّه إدراك ما لم يكن ليفوته، ويسوءه فوت ما لم يكن ليدركه، فلا تكن بما نلت من دنياك فرحا، ولا بما فات منها ترحا، ولا تكن ممن يرجو الآخرة بغير عمل، ويؤخر التوبة لطول الأمل، فكأن قد، والسلام[(١)]).

وقد أجمع العلماء على اختيار الزهد فيها، ووصفها الله تعالى بأنها ﴿لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾؛ فمن عرفها حق معرفتها بغضها وسخطها، ولم يعتلق قلبه بها ولا بحبها، ومن لم يحبها أحب الآخرة، وسعى لها سعيها.

ومما رواه الإمام الكينعي -قدس الله روحه- عن الفضيل بن عياض -نفع الله ببركته وأردتُ بإيراد كلامه هنا التبرك برقم هذا الأثر؛ لفضله، وفضل قائله، وفضل راويه، ولمناسبته كثيرا مما تقدم، وللمأثور عن أئمة الفضل حُسْنُ أثره في القلب- قال: قراءة آية من كتاب الله، والعمل بها، أحبُّ إليَّ من ختم القرآن ألف مرة، وإدخال السرور على المؤمن وقضاء حاجته أحب إليَّ من عبادة العمر كله، وترك الدنيا ورفضُها أحب إليَّ من تعبد أهل السموات والأرض، وترك دانق[(٢)] من حرام أحب إليَّ من مائة حجة من حلال.

---

(١)- الأمالي الخميسية للإمام الموفق بالله -عليه السلام- [٢/ ٣٢٥].

(٢)- الدانق بفتح النون وكسرها: جزء من أجزاء الدرهم، والدرهم: عملة مضروبة من الفضة، ذكر في البحر الزخار: أنه: عشرة دوانيق ونصف.

[الخلق السابع عشر] ترك ما لا يعني

قال صلى الله عليه وآله وسلم: ((من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه[(١)])).

وقد قيل: إن كثيرا من الأحاديث النبوية مرجعها إلى هذا الخبر؛ فهو من الكلمات الجوامع النوافع.

واعلم أن ما يفعله الإنسان ويهمُّ به لا يخلو من أحد خمسة أنواع: واجب، ومندوب، ومباح، ومكروه، ومحظور.

فالمحظور يجب اجتنابه بكل حال، والمكروه ينبغي اجتنابه ما أمكن نحو: الأكل بالشمال، والاستنجاء باليمين.

وأما المباح فما لم تدعُ إليه حاجة توجه عدم الاشتغال به وتضييع الوقت بفعله، وما كان فيه منه جلب نفع أو دفع مضرة، كان فعله مع قصد القربة فيه أولى؛ فما من مباح إلا وينقلب قربة عند الحاجة إليه والنية الصالحة حسبما تقدم التنبيه عليه، وحينئذ يصير مما يعنيه، لا مما لا يعنيه.

وأما الواجب: فيتحتم الإتيان به على كل حال.

وأما المندوب: فينبغي الإتيان به حسب الإمكان، وهو مما يعني الإنسان، وبيد الله التوفيق وهو المستعان.

---

(١)- الترمذي [٤/٥٥٨] رقم (٢٣١٨) عن علي بن الحسين عليه السلام مرسلا، وابن ماجه [٢/ ١٣١٥] رقم (٣٩٧٦)، ورواه الدولابي في الذرية الطاهرة عن الحسين السبط عليه السلام [٨٧] رقم (١٥٢).

[الخلق الثامن عشر] التوبة

هي منزلة شريفة، لا يرتفع عنها أحد لارتفاع منزلته عند الله، كما لا يتضع عنها أحد لكثرة ذنوبه؛ قال تعالى: ﴿لَقَد تَّابَ اللّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ﴾ [التوبة١١٧]، وقال في حق الكفار: ﴿أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللّهِ﴾ الآية [المائدة٧٤]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: ((لو أخطأتم حتى تبلغ خطاياكم السماء، ثم تبتم، لتاب الله عليكم[1])). رواه ابن ماجه.

ويجب ملازمة التوبة واستصحابها في بداية أمر العبد ونهايته، بلغ عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال لأبي ذرٍّ: ((إن حقوق الله أعظم من أنْ يقوم بها العبد، ولكن أصبحوا تائبين، وأمسوا تائبين[2])).

وعن معاذ رضي الله عنه قال: أخذ بيدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فمشى قليلا، فقال: ((يا معاذ، أوصيك بتقوى الله، وصدق الحديث، ووفاء العهد، وأداء الأمانة، وترك الخيانة، ورحمة اليتيم، وحفظ الجوار، وكظم الغيظ، ولين الكلام، وإفشاء السلام، ولزوم الإمام، والتفقه في القرآن، وحب الآخرة، والجزع من الحساب، وقَصْرِ الأمل، وحسن العمل. وأنهاك: أن تشتم مسلما، أو تصدق كاذبا، أو تكذب صادقا، أو تعصي إماما عادلا، وأن

---

(١)- ابن ماجه [٢/ ١٤١٩] رقم (٤٢٤٨)،

(٢)- سياسة المريدين للإمام المؤيد بالله عليه السلام.

تفسد في الأرض، يا معاذ، اذكر الله عند كل شجر وعند كل حجر، وأحدِث لكل ذنب توبة: السرُّ بالسرِّ، والعلانية بالعلانية[(١)])). رواه البيهقي.

وفيه دليل على وجوب الإشعار بالتوبة لمن علم بالمعصية.

[أركان التوبة]

وللتوبة ركنان:

أحدهما: الندم: وهو شيء يعلمه الإنسان من نفسه، ويجد له حالة ومزية تخالف حالهُ مع عدم التوبة، وهو من الخصال الحميدة، قال صلى الله عليه وآله وسلم: ((النادم ينتظر من الله الرحمة، والمعجب ينتظر المقت، واعلموا عباد الله، أن كل عامل سيقدم على عمله، ولا يخرج من الدنيا حتى يرى حسن عمله وسوء عمله، وإنما الأعمال بخواتيمها، والليل والنهار مطيتان، فأحسنوا السير عليهما إلى الآخرة، واحذروا التسويف؛ فإن الموت يأتي بغتة، ولا يغترنَّ أحدكم بحلم الله -عز وجلّ-؛ فإن الجنة والنار

(١)- الجامع الكافي للشريف أبي عبد الله الحسني [٦/ ٢٠٣-نسخة إلكترونية]، البيهقي في الزهد الكبير [١/ ٣٤٧] رقم (٩٥٦).

أقرب إلىٰ أحدكم من شراك نعله))، ثم قرأ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ﴾ إلىٰ آخر السورة[1]. [الزلزلة٧-٨].

فيجب الندم علىٰ ما أتي به من القبيح لقبحه، وما أخلَّ به من الواجب لكونه إخلالا بواجب، ويبالغ في هذا الندم مبالغة شديدة حتىٰ يكون أبلغ من الندم علىٰ ما أخطأ فيه وقصّر من أمور دنيه، وأبلغ حسب الإمكان، ويتوب من كل ذنب بعينه إن أمكن، وإلا فمن جميع ذنوبه جملة، مع عدم انحصارها، ويقضي ما فرط فيه من حقوق المخلوقين علىٰ الوجه المخلص شرعا.

وثانيهما: العزم: وهو أن يعزم عزما قويا أبلغ ما يمكن علىٰ أن لا يأتي شيئا من القبائح، ولا يخلّ بشيء من الواجب، وليكسر شهوته، وليذل نفسه بشيء من الطاعات الشاقة كالصلاة، والصيام، ونحوهما.

فمتىٰ تمَّ ما ذكر فهي التوبة النصوح المقبولة -إن شاء الله تعالىٰ-.

[من لوازم التوبة: الإشفاق والخوف]

قيل: ويلزم أن لا يخلو التائب مع ذلك من الإشفاق والخوف؛ إذ لا يأمن من كون توبته غير واقعة علىٰ الوجه المرضي المقبول، ويدل عليه قوله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون٦٠]،

---

(١)- المنذري في الترغيب والترهيب [٤/ ٤٨] رقم (٤٧٥٧).

وقوله تعالىٰ: ﴿يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾(١) [الإسراء٥٧].

وسئل جعفر بن محمد عَلَيْهِمَا عن معنى قوله تعالىٰ: ﴿[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا] تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحاً﴾ [التحريم٨]، قال: يتوب العبد ولا يعود. وقيل: حقيقة التوبة: أن يبغض المعصية.

وقيل -في علامات التوبة- هي أربع:

إدمان البكاء على ما سلف من الذنوب، والخوف المقلق من الوقوع فيها بعد، وهجران أخدان(٢) السوء، وملازمة أهل الخير.

[ما يستعان به على التوبة ودواعيها]

ويستعان على التوبة: بأن يملأ القلب خوفًا وخشية؛ لأن التوبة لا تكاد تتمّ -وإن تمت لم تصفُ ولم تدم- ما لم يصحبها الخوف؛ وقد نبه الله تعالىٰ على ذلك بقوله: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ(٣)﴾ [الأنعام٥١].

---

(١)- الآية بتمامها: قال تعالىٰ: ﴿أُولَـئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً﴾. راجع الخلق الرابع عشر والخامس عشر.

(٢)- أخدان: جمع خِدْن، وهو الصديق في السر، قال تعالىٰ: ﴿وَلاَ مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ [النساء٢٥].

(٣)- الآية بتمامها: قال تعالىٰ: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُواْ إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

ولا شك أن الخوف للتوبة بمنزلة الأساس للبنيان.

ومن أبلغ دواعيها وأقوى أسبابها: الاستكثار من ذكر الموت، والاستشعار لأسباب الفوت، وللأحوال التي تكون قبل الموت وبعده من البِلى في القبر، وأحوال النشور والبعث، وأحوال الجنة والنار.

ومَن أحسَّ من قلبه القساوةَ، وقلَّةَ التَّنَبُّهِ، فليتصور أحواله عند الغرغرة والنزاع، ومفارقة الروح للجسد، ويتصور حالته تلك عند أهله، وحالهم عنده، وأيتامه وبكائهم عليه وندبهم له، وغير ذلك مما هو معلوم بضرورة العادة، عنه صلى الله عليه وآله وسلم: ((من أكثرَ ذكرَ الموت سلا عن الشهوات، ومن سلا عن الشهوات هانت عليه المصيبات، ومن هانت عليه المصيبات سارع إلى الخيرات)).

ومن أسباب التوبة، ودواعيها: قراءة القرآن بصوت شجي، واستماع من يقرؤه مرتلاً، متوقفاً على آيات الوعد والوعيد، متدبرا لها. عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه سئل عن قوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ [المزمل٤]، فقال: ((بيِّنهُ تبيينا: قفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب، ولا يكن همَّ أحدكم آخر السورة[1])).

قال القاسم عليه السلام: هَيِّجُوا قلوبكم بأصوات الأحزان والبكاء، إما بأنفسكم، وإما بغيركم من القُرَّاء.

(١)- البيهقي في شعب الإيمان [٢/ ٣١٨] رقم (٤١١٧).

[كيف تعظم الآخرة في القلب]

تنبيه: اعلم، أن كل من أيقن بالبعث والنشور، والجنة والنار، يحب لا محالة الفوز بالثواب، والنجاة من العقاب؛ وإنما يصرفه عن ذلك حب الدنيا ، والتعظيم لها ، والاغترار بها، ولذلك ورد: ((حب الدنيا رأس كل خطيئة))؛ فإذا عرفت ما تقدم حق معرفته، واكتسبت الخوف والخشية والهم والحزن، ودُمْتَ على ذلك، صغرت الدنيا في عينك، وحقر قدرها في نفسك، وبقدر ذلك تعظم الآخرة في قلبك، ويكبر حالها عندك، فمن هانت الدنيا عليه عظمت الآخرة لديه، وسهلت التوبة في حقه، وكثرت دواعيه إليها.

تنبيه آخر مفيد جدا: [التوبة وأنواع التائبين]

اعلم، أن الثبات على التوبة عسير، والناكصون عنها الناقضون لها هم الجمّ الغفير، قال بعض الحكماء: الناس في التوبة على ثلاث منازل:

- رجل تاب عند نفسه ما لم تعرض له شهوة، فإذا عرضت له أضاع المحاسبة وركبها، وأكثر الناس على ذلك.
- ورجل تاب بقلبه، وجوارحه تضطرب عليه، فيستقيم طورا، ويعدل عن المحجة أخرى، فهو من نفسه في جهد، وبحسب اجتهاده يزداد صفاء وكدرا.

- ورجل تاب بقلبه وجوارحه، قد عطف بعضها على بعض، فأدمن المحاسبة مخافة أن ينقلب منه شيء أو يظفر به عدوه، فهذا الذي استوجب من الله العصمة والتثبيت.

نعم، فيجب على العبد الصبر على التوبة، والتمسك على سبيل الاستمرار بها، والتوقي لأن يصرفه الشيطان بتسويله أو دعائه إلى الشهوات، أو حب المال، أو حب الشرف، فكل واحد منها قاطع للتائب عن التوبة.

فالشهوة تدعو إلى ما يلذ السمع، والبصر، والشم، وفي المطعم، والمشرب، والمنكح.

ومما تدعو إليه الكسل؛ لأن أصله حب الراحة، وهي أشد دعاء إلى الكلال.

فيجب أن يستعين العبد على دفع الشهوات: بمداومة الجوع والعطش، وملازمة الخلوة.

وحب المال يدعو إلى الجمع بين الحلال والحرام والشبهات.

ومن جملة ما يدعو إليه: البخل الذي يمنع من إيفاء ما عليه من حقوق الله تعالى، وحقوق بني آدم المتعلقة بالمال.

وحب الشرف يدعو إلى الحسد، والكبر، والرياسة، والرياء، والغضب.

ويجمع ذلك كله: حب الدنيا؛ ولذلك قال صلى الله عليه وآله وسلم: ((حب الدنيا رأس كل خطيئة)).

وأشد الدواعي إلى نقض التوبة دواعي الشهوات، ولذلك ذمها الله تعالى في قوله: ﴿[وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ] وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلاً عَظِيماً﴾ [النساء٢٧]، ونحوه.

قال بعض الحكماء: «ليس لعدوك عليك سبيل ما دمت متسلطا بسيف الصبر على شهوتك، فإن تركت الصبر ومِلتَ إلى شهوتك تسلط عليك عدوك»؛ ولذا نجد كثيرا من أبناء الدنيا المنهمكين فيها إذا تابوا لم يثبتوا على التوبة؛ إما بأن ينسلخوا منها جملة، أو بأن يُخِلّوا ببعض أركانها؛ لأن دواعيهم إلى الدنيا، وصوارفهم عن الطاعات، تكون بحالها لم يعالجوها، كقاصد غيظة فمسحها، وقطع أشجارها، وترك عروقها بحالها لم يزلها، ولا تعاهد الأرض بالتنقية؛ فإنه عن قريب تنبت أشجارها وتعود غيظة كما كانت.

هذا، ويستعان على دفع حب الشرف: بتحقير النفس وتحقير قدرها بتذكر كثرة أدناسها، وضعفها وفقرها وذلتها ومسكنتها؛ وكيف لا وهي في الابتداء نطفة، وتصير في الانتهاء جيفة، وبأن يقدر الله حق قدره، ويجلّه ويخشع له بتذكر عظمته واقتداره على ما يشاء.

ويستعان على دفع حب المال: بأنه لا سبيل إلى نيل النفس غير القوت في المطعم والمشرب والملبس، وكذلك العيال، قلَّ المال أو كثر، ولا سبيل إلى غير ذلك من خلودٍ أو غيره.

وإذا لم يرزق العبد الثبات على التوبة، والصبر على ملازمة الطاعة، فوقع في المعصية مرة أخرى، فلا يغفل عن معاودة التوبة المرة بعد المرة، ولا يقنط بسبب نقض التوبة؛ فعنه ﷺ أنه قال: ((إن عبدا أصاب ذنبا، فقال: يا رب، إني أذنبت ذنبا فاغفر لي، فقال له ربه: عَلِمَ عبدي أن له ربا يغفر الذنب، ويأخذ به، فغفر له، ثم مكث ما شاء الله ثم أصاب ذنبا آخر، ثم قال: يا رب، إني أذنبت ذنبا آخر، فاغفر لي، قال ربه: علم عبدي أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به، فغفر له)) الحديث، حتى ذكر مثل هذا المعنى بمثل هذا اللفظ أربع مرات، قال في آخرها: ((فقال ربه: غفرت لعبدي، فليعمل ما شاء[1])). رواه البخاري، ومسلم.

والمعنى: يعمل ما شاء ما دام كلما أذنب ذنبا استغفر وتاب منه، ولم يعد إليه، هكذا تأوله بعض العلماء.



---

(١)- البخاري [٩/ ١٤٥] رقم (٧٥٠٧)، ومسلم [٤/ ٢١١٢] رقم [٢٩-(٢٧٥٨)].

خاتمة

هي مشتملة على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: في ذكر أمهات المعاملة وما يتصل بذلك

قيل: إن أمهات المعاملة أربع: التوبة، والزهد، والعبودية، والاستقامة، وتمامها بأربعة: إقلال الطعام، وإقلال الكلام، وإقلال النوم، والعزلة عن الناس.

وقيل: بل هي خمس:

الأولى: معاملة النفس:

وذلك بمنعها هواها، وإذلالها وردِّ جماحها بالطاعة وكسرها؛ فإنها في الحقيقة أكبر الأعداء.

وذلك بأن ينظر في القلب فيطهره من الأخلاق المذمومة كالرياء، والحسد، والكبر، والعجب، والبخل، والحرص، والطمع، والمكر، والخديعة، والغش، وحب الثناء، والولوع بالشهوات، ومحبة الدنيا، والغفلة عن الآخرة، وغير ذلك من غرائزه المذمومة.

وبأن يغرس فيه: الإخلاص، والتواضع، والنصيحة، والشفقة، وحسن الخلق، والتهاون بالذم، واعتماد الشكر، والسخاء، ومحبة الآخرة، والإعراض عن الدنيا وشهواتها: الحرام بكل حال،

والحلال ما أمكنه، إلى غير ذلك من الخلائق المحمودة.

ثم ليطهر لسانه من: الكذب، والنميمة، وسائر فضلات الألسنة، ثم يده وبطنه وفرجه، وسمعه، وبصره، وسائر جوارحه.

وينظر في حلّ ملبسه، وسائر تصرفه، ولا يطيع نفسه في شيء من هواها، اللهم إلا أن يخشى منها النفور الكلي، فإنه يُرَفِّهُ[1] عليها بشيء من المباحات؛ مع استحضار النية الحسنة، والإقلال ما أمكن، ويبني نفسه على الإتيان بالطاعة، واجتناب المعصية ما أمكن.

الثانية: معاملة الله تعالى:

وهي بالالتجاء إليه، ورؤية أن لا سواه، وأن يكون العمل له وبه كما تقدم. ولا طريق سوى الاعتراف بالعجز عن بلوغ أداء ما يستحقه.

وليحذر أن يفقده حيث أمره، أو يراه حيث نهاه، وليثق به غاية الثقة؛ لا بغيره، فمن عامله ربح وأفلح، ورشد وأصلح.

الثالثة: معاملة الشيطان:

بأن يبني على أنه عدوُّه، فلا يطيعه، ويستشعر أنه يأتيه من طرق كثيرة؛ فإذا خطر بقلبه ما لا يعلم أنه منه وأحس هو أم لا- عرضه على الشريعة المطهرة، ثم تثبتَ وتأنَّى، واستخار

---

(١)- يرفه: من الرفاهية، وهي النعمة والسعة، والمراد: أن يوسع على نفسه بشيء من النعم المباحات؛ لينفي عنها النفور.

الله سبحانه وتعالى، وتَعَوَّذَ من كيد إبليس ومكره، وكذلك يعرضهُ على الصالحين، ويتدبر العاقبة فيه؛ فإنه عند ذلك ينكشف له الأمر إن شاء الله.

الرابعة: معاملة الدنيا:

والدنيا: عبارة عما ليس بمراد لله تعالى، أو شغل عن الأفضل وإن كان مرادا له.

والضابط: أن كل ما لا نفع فيه في الآخرة فهو دنيوي محض؛ وما نفع فيها فأخروي وإن كان من أعمال الدنيا.

ومعاملة الدنيا: بأن يعرف العبد أن لا راحة فيها، فلا يطلبها ولا يتعلق قلبه بالتنعم والترفه والرياسة فيها، وليس له منها إلا كفاية، فليطلب منها ما يطلبه المسافر مما يبلغه منزله، وهذا لا يتم إلا بالبناء على قرب الأجل، وسرعة الموت؛ فإنه من أطال الأمل أساء العمل.

الخامسة: معاملة الخلق:

ولقد عظمت البلوى بهم؛ فإن لهم حقوقا، ومنهم ويسببهم تنشأ أكثر الشرور؛ فليقم العبد بحقوقهم[1]، ويسقط حقه ما أمكن، وليبعد عنهم جهده إن صلحت له العزلة، وإن لم تصلح له.

---

(١)- أخرج الإمام الموفق بالله عليه السلام في الاعتبار رقم (٥٠٤) عن أمير المؤمنين -صلوات الله عليه-: ((للمسلم على أخيه ثلاثون حقاً، لا براءة له منها إلا بالأداء، أو العفو له: [١] يغفر
=

فليجالس من فيه خير(١)؛ فجليس الخير خيرٌ من الوحدة، والوحدة خيرٌ من جليس السوء.

ويحب لهم ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لها، وتكون محبته في الله، وبغضه في الله، وموالاته ومعاداته كذلك.

ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، بقدر طاقته.

ويملك نفسه عند الشهوة والغضب، ولا يعجل في شيء من الأمور فيخطئ، ويتوانى فيبطل.

ولا يداهن على المعصية، ولا يخل بالمداراة الجائزة عند خوف المضرة. وليحسن الظن بهم ما أمكنه(٢).

زلته، [٢] ويرحم عبرته، [٣] ويستر عورته، [٤] ويقيل عثرته، [٥] ويقبل معذرته، [٦] ويرد غيبته، [٧] ويديم نصيحته، [٨] ويحفظ خلته، [٩] ويرعى ذمته، [١٠] ويعود مرضته، [١١] ويشهد ميتته، [١٢] ويجيب دعوته، [١٣] ويقبل هديته، [١٤] ويكافئ صلته، [١٥] ويشكر نعمته، [١٦] ويحسن نصرته، [١٧] ويحفظ حليلته، [١٨] ويقضي حاجته، [١٩] ويشفع مسألته، [٢٠] ويشمت عطسته، [٢١] ويرشد ضالته، [٢٢] ويرد سلامه، [٢٣] ويبر إنعامه، [٢٤] ويصدق أقسامه، [٢٥] يواليه ولا يعاديه، [٢٦] وينصره ظالماً أو مظلوماً، أما نصرته ظالماً فيرده عن ظلمه، وأما نصرته له مظلوماً فيعينه على أخذ حقه، [٢٧] ولا يسلمه، [٢٨] ولا يخذله، [٢٩] ويحب له من الخير ما يحب لنفسه، [٣٠] ويكره له من الشر ما يكره لنفسه)). ثم قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: ((إن أحدكم ليدع من حقوق أخيه شيئاً فيطالبه به يوم القيامة فيقضي له عليه)).

(١)- وكل من كان الخير فيه أكثر، فهو أولى بالمجالسة.

(٢)- هذا في حق من كان مؤمنا، أما غير المؤمن فلا؛ لأن غير المؤمن إما فاسق والغالب في الناس الفسق، وإما منافق، وإما كافر، والفسق، والنفاق، والكفر، تمنع من تحسين الظن، بل تدعو إلى إساءة الظن، وقد قيل: «سوءُ الظَّنِّ من حُسْنِ الفِطَن».

وينظر إلى من فوقه في الدين فيقتدي به، وإلى من دونه في الدنيا فيأمن ازدراء نعمة الله عليه، ويكثر الشكر لله تعالى على أن فضله على غيره.

وبالجملة: فما عرف رشده اتبعه، وما عرف قبحه اجتنبه، وما التبس عليه توقف في الحكم فيه، واجتهد في طلب معرفته، ثم يعمل بمقتضاها، وما تعارض فيه مرجح للفعل، ومرجح للترك، فليكن ميله إلى الترك كالكلام، والصمت، إلا أن يكون مرجح الفعل أقوى.

وللأمور قرائن ودواعٍ ومرجحات من وجوه لا تنحصر، وكثير منها لا يحصل إلا بالإلهام من الله تعالى، بعد ذكره واستخارته، والتأني والرجوع إلى الشرع وأهله.

واعلم أن كثيرا من التكاليف قد تختلف في الوجوب، والأفضلية، بحسب: الأشخاص، والأحوال، والأزمان؛ ولهذا قيل: إن طلب الثواب بالتكسب من الحلال أفضلُ من انتظار ما في أيدي الناس، إلا لأربعة: العالم، والمتعلم، والمجاهد، والعابد بالعبادات القلبية، لا البدنية؛ فهؤلاء يأخذون من أموال الله تعالى، ويُقْبِلُون على ما هم فيه.

وقد يجب الطلب وذلك عند الضرورة.

وقد يكون محظورًا إذا كان على وجه قبيح، أو لمعصية.

وقد يندب، ويكره، ويباح حسبما يقترن به.

وإنما أردنا الطلبَ بالكسب لا بالسؤال؛ لأنه منهيٌّ عنه، ومتوعَّدٌ عليه، والله سبحانه أعلم.

القسم الثاني: في الوظائف

اعلم أن من أسباب المداومة والملازمة للصفات الحميدة والأفعال السديدة أن يوظف الإنسان لنفسه وظائف(١) معلومة محدودة، والمراد: أن يوزع أوقاته ويقسمها على ما يليق بها من عبادة وقربة كصلاة وتلاوة وأدعية وأذكار.

ومن اشتغاله بأمر معاشه، وبما يتعلق به من أمر العامة، وأعمال ما يتولاه إن كان ذا ولاية خاصة، أو عامة.

ويبني نفسه على أن لا يترك شيئا من ذلك، ولا يؤخره وله سبيل إلى الإتيان به فإن تعذر عليه في وقته لعذر لا طاقة له بدفعه أتى به فيما بعده؛ لئلا يعتاد الترك بالكلية ويتساهل به.

مثاله: أن يكون له حِزْبٌ(٢) في قيام الليل لصلاة، أو قراءة قرآن، في وقت معلوم منه، فيغلبَهُ النوم، ولا ينتبه كجاري عادته، فإنه يأتي به في النهار كاملا.

ومن كانت له عادة في النهار من دراسة علم أو كتابة أو غير

---

(١)- الوظائف: جمع وظيفة، وهي ما تقدره على نفسك تقديرا محددا معلوما في وقت معلوم، لتقوم به بشكل دائم.

(٢)- الحزب: الوِرْد. وورد الرجل من القرآن والصلاة: حزبه. والحزب: ما يجعله الرجل على نفسه من قراءة وصلاة كالورد. [لسان العرب].

ذلك، فعرض له عارض من مرض، أو أي عارض، فإنه يأتي بـه في الليل، وعلى هذا فقس.

ولا ينبغي أن يوظف لنفسه مما ذكر إلا ما يغلب في ظنه أنه يحسن المداومة عليه ويمكنه -وإن قلَّ- من قراءة القرآن، والصلاة بالليل والنهار، وأدعية الصباح والمساء، والنوم واليقظة، والأذكار المأثورة المباركة، والصيام في أيام معلومة كأيام البيض، والاعتكاف في رمضان أو غيره، ومدارسة العلم، وغير ذلك.

فمن اعتاد شيئا ولازمه سهل عليه وداوم على فعله، ومن بنى على أنه يفعل الممكن وإن كَثَّرَ في وقتٍ وقَلَّلَ في آخرَ فهو إلى الترك والتبطيل قريب.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: ((خذوا من الأعـمال مـا تطيقـون، فـإن الله لا يملّ حتى تملّوا، وإن أحبَّ الأعمال إلى الله مـا دام وإن قـلَّ[1])) رواه البخاري، ومسلم.

---

(١)- البخاري [٧/ ١٥٥] رقم (٥٨٦١)، ومسلم [١/ ٥٤٠] رقم [٢١٥-(٧٨٢)].

قلت: الملل مما لا يجوز على الباري تعالى؛ لأنه من صفات المخلوق، قال الإمام عز الدين عليه السلام في جواب سؤال عن معنى هذا الخبر: «أقول: قال ابن الأثير في نهايته ما معناه: إن الله لا يمل أبداً، مللتم أم لم تملوا. فجرى مجرى قولهم: حتى يشيب الْغُرَابُ وَيَبْيَضَّ القار»، وقيل معناه: إن الله لا يطرحكم حتى تتركوا العمل وتزهدوا في الرغبة إليه، فسمى الفعلين مللا وكلاهما ليس بملل، كعادة العرب في وضع الفعل مكان الفعل إذا وافق معناه، وقيل معناه: إن الله لا يقطع عنكم فضله حتى تملوا سؤاله، فسمّى فعله تعالى مللاً على طريق الازدواج في الكلام، كقوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [الشورى٤٠]. انتهى.

=

وفي رواية عن الترمذي: ((كان أحب العمل إلىٰ رسول الله ﷺ ما ديم عليه[(١)])).

فائدة: [في تقسيم الوظائف]

قال بعض علمائنا الزاهدين[(٢)] -رحمهم الله تعالىٰ-:

قلتُ [أي الإمام عليه السلام]: وكلام ابن الأثير هنا لا يخلو عن نظر؛ لأن قولهم: «حتىٰ يشيب الغراب»، عُلِّق بمستحيل، فقضىٰ بأنه لا يكون أبداً، وأما قوله: (حتىٰ تملّوا)، فليس مللهم بمستحيل، وكذلك قوله: (حتىٰ تملوا سؤاله)، لم يرد هذا في الدعاء والسؤال بل في العمل كما صرح به هو، فإنه روىٰ الحديث: «اعملوا من العمل ما تطيقون فإن الله لا يمِلّ حتىٰ تملوا»، ولم أرَ للعلامة ابن الأثير تفسيراً يلوح عليه آثار الركة ككلامه في هذا المعنىٰ، والذي ينقدح في النفس ويغلب علىٰ الظن: أن المبالِغ في العمل المستكثِر منه متصور بصورة من يريد أن يبلغ بذلك إلىٰ غاية معناها أن يكتفي الله منه بما قد فعل، ولا يريد الزيادة عليه، واستعير لذلك معنىٰ الملل، كعبدٍ يجِدّ في خدمة سيده وبالغ فيها حتىٰ قنع سيده بما قد وقع منه واستكثره واستمر منه، فأراد النبي ﷺ التنبيه علىٰ أن هذا أمر لا يبلغ إليه ولا ينتهي المفرط في كثرة العمل من الصلاة والصوم والتهجد والتصدق إليه، وأن الله سبحانه لا ينتهي حال المفرط في عبادته إلىٰ حد يكتفي منه بما قد فعل ويقدم ويجتزئ به، ويكون مراد الله تعالىٰ أن يكفّ من بعد ذلك ويترك بالكلية، وإذا كان هذا أمر لا غاية له، فحق العبد أن يتحمل من العمل ما يطيق ولا يفضي به هو إلىٰ أن يسأم ويمل ويعجز ليستمر عليه ولا يعود إلىٰ تركه فيؤول أمره إلىٰ أن خاتمته دون ما كان عليه وإلىٰ التقصير في العمل، فجدير بذي الهمة العالية في الدين ألا يرتضي العود إلىٰ حالة ناقصة، وأن يختم عمره بالتقصير في وظائف طاعته، وأن يطمع في الازدياد، وعبّر عن هذا المعنىٰ بالملل -وإن كان لا يجوز علىٰ الله تعالىٰ- للمشاكلة، كقوله تعالىٰ: ﴿**تعْلمُ ما في نَفْسِي ولا أعلمُ ما في نَفْسِكَ**﴾ [المائدة:١١٦]، وليس لله نفس، وإنما عبر بها عن ذات الله وما في علمه، والله سبحانه أعلم». [الفتاوىٰ: ١٢٠].

(١)- الترمذي [٥/ ١٤٢] رقم (٢٨٥٦).

(٢)- هو الفقيه العابد إبراهيم بن أحمد الكينعي رحمه الله تعالىٰ.

الوظائف ثلاث: منها ما يرجع إلىٰ الأوقات:

- فالليل للعبادة قدر الإمكان.
- والنهار للصوم قدر الإمكان.
- ومن صلاة الفجر إلىٰ طلوع الشمس للذكر، وبعده للعلم إلىٰ وقت الضحىٰ.
- وبعده لحوائج الدنيا له ولإخوانه.
- وبعده للقيلولة إلىٰ وقت الصلاة.
- وبعده للعلم إلىٰ العصر، وبعد العصر للذكر، أو للعلم، أو الحاجة له مما ينوبه، أو لغيره من المسلمين.

قلت: وهذه الوظائف أمور إضافية، تليق بالإضافة إلىٰ بعض الأشخاص وتصلح في حقه، وقد يكون الأليق في حق بعض الأشخاص غير هذا، ويكون التوظيف في حقه علىٰ غير هذه الكيفية كمن له اشتغال بعائلة واسعة تستغرق النظر في أمور معاشهم أكثر أوقاته بأن يتكسب بمهنة مستغرقة لأكثر النهار أو كله غير فرائضه، وكمن له ولاية عامة من إمامة أو قضاء، أو خاصة كأوقاف ومساجد يستغرق النظر في إصلاحها كثيراً من أوقاته.

وبالجملة فوظائف كلٍّ علىٰ قدر ما يليق بحاله ويحتمله، مع حسن القصد والإخلاص والانقطاع إلىٰ الله، والاشتغال بالأفضل في حقه حسب الإمكان، والله المستعان.

قال: ومنها ما يتعلق بالأحوال: وهي أن لا يتعلق بشيء من رياسة الدنيا، وأن يكون اللباس الصوف وشبهه، والأكلُ أيَّ شيءٍ كان.

قلت: وهذا في حق من تخلَّى للعبادة ومجاهدة النفس، وانقطع عن الدنيا بالكلية، ولعمري إنها الدرجة الرفيعة، والوظيفة الشريفة، ومن لم يبلغ به الترقي إلى هذه الدرجة العالية كانت وظيفته في أحواله حسبما يحتمل في أكله ولباسه.

وقد يحسن التجمل باللباس إذا كان في التبذل سقوط مرتبةٍ وانتقاص درجةٍ تخلُّ بأمر ديني كـ: في حق الإمام، ومن له رتبة دينية يكون ذلك وهنا فيها. وقد يكون الأكل مما يلذّ ويستطاب أولى في حق من لا يصبر عنه؛ ويستدعي به منه خالص الشكر، يخل به تركه في عبادته ووظائف دينه، فلا يغفل عن مثل هذه الاعتبارات.

قال: ومنها ما يرجع إلى الأشخاص- فالواقفون هذا حكمهم، والزائر يكرم ويوعظ، والمريد للوقوف يختبر حاله، ثم يعلم، ثم يدخل في الجملة.

وضابط الجميع: أن لا يشتغل بشيء وهو يقدر على أفضل منه، ولا يقارف شيئا من الدنيا الدنية وهو يمكنه الصبر عنه.

القسم الثالث: [في أهمية الإخلاص]

من الأخبار المأثورة والأحاديث المشهورة: ما روي عنه ﷺ: ((الناس كلهم هلكى إلا العالمون، والعالمون كلهم هلكى إلا العاملون، والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم[١])).

وهذا حديث فاجع، وخبر رائع[٢]، جدير[٣] لمثله أن تحترق به الأفئدة بنيران الوجد[٤] الموقدة، وأن تصرف الأذهان إلى معرفة وجه الخلاص، ويرجع البصر[٥] هل بعد هذا الخبر من مناص[٦].

وقد تكلم بعض علمائنا -رحمهم الله تعالى- في هذا الشأن فأجاد وأحسن البيان.

وحاصل ما يمكن ذكره في هذا المعنى: أن الخطر الذي يخافه العبد بعد هذا العلم والعمل والإخلاص[٧] لله -عزّ وجلّ- هو

(١)- العجلوني في كشف الخفاء [٢/ ٣٧٨] رقم (٢٧٩٦)، والغزالي في ميزان العمل [١/ ٢٦٩] مرفوعا، وفي الإحياء في مواضع منه ولم يرفعه.

(٢)- رائع هنا بمعنى: مُفزع.

(٣)- جدير بكذا ولكذا: خليق له، أي: حقيق به.

(٤)- الوَجْدُ هنا بمعنى: الحزن الشديد.

(٥)- ترجيع البصر: ترديده ومعاودته، قال تعالى: ﴿ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِأً وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك٣-٤].

(٦)- المناص: الملجأ والمهرب.

(٧)- «إذا علم الله من قلبك صحة الإرادة، وإخلاص العمل، أوصلك إلى الخير، =

لعدم الأمن في الوقوع فيها يحبط سعيه ويبطل عمله؛ إذ لا تكليف عليه بعد جمعه للعلم والعمل والإخلاص لله -عز وجل- إلا حفظ ذلك، والاحتراز عليه مما يحبطه من المآثم الدقيقة التي قد يذهل القلب عن التنبه لها، وشدة خطرها وعظم موقعها، فيتهاون بها ويتسامح بفعلها.

[مكمن الخطر]

والخطر من وجهين:

أحدهما: أن يغترَّ بالشيطان، فيحسن في عينه القبيح بنوع من حيلهِ، حتى يخيله إليه حسنا، فيرتكبه، فإن الشيطان من أهل الدهاء والمكر، وليس يعالِـجُ العالمَ العاملَ المخلصَ بتحسين

وهدى قلبك، ويسر أمرك، وجمع شملك، وهوَّن عليك الصعوبة، وقمع عنك الشهوات، وبغَّض إليك الدنيا، وبصَّرك عيوبها وأدواءها حتى تعافها، وإذا عرف الله منك الصدق والاجتهاد، وعلم أنك لا تختار عليه غيره، قَبِلَ اللهُ سعيَك، وشكر عملك، وصار اجتهادُك تلذذاً وحلاوة، فإذا رآك الله تعمل على الحلاوة ولا تتوانى، ولا تختار عليه الدنيا، ولا تَتَّبع هواك، ولا تطلب شهوتك، قَبِلَ اللهُ منك عملك، ونَثَر عليك من صفاء بره، ونشر عليك من مخزون رحمته، وكثَّر عليك من عطائه، ومنحك مِنْ خزائن جوده، وجزيل مواهبه ومعونته، ما تَقَرّ به عينُك، وما إذا رأيته زادك اجتهاداً وخوفاً وعزماً، ونضَّر أثر ذلك عليك، وأورث قلبك النور والتقى والهدى، والشبع من الدنيا، وأغناك عمن دونه، وأعطاك مِنْ عطائه، ما لم يحسن أن تتمنى قبل ذلك، والله كريم يقبل اليسير، ويعطي عليه الثواب الكثير» [مجموع الإمام القاسم الرسي: العالم والوافد ٢/ ٤٤٤].

القبائح الضرورية الظاهرة.

وربما يكون السبب في عدم التنبه للقبيح- الإخلال بالنظر الصحيح، والتأمل النافع، فيرى ذلك القبيح حسناً، وقد أشار تعالى إلى هذا الوجه بقوله: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات٢]، وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾ [الكهف١٠٤].

وثانيهما: أن يفعل ما يعتقده حقيرا في جنب طاعاته وأعماله الصالحة، وتسول له نفسه أن الله -سبحانه- لا يعتدّ بذلك في جنب علمه وعمله وإخلاصه، وقد نبَّهَ صلى الله عليه وآله وسلم على الحذر من ذلك فقال: ((إياكم وَمُحَقَّرَاتِ[1] الذُّنُوبِ، فَإِنَّ لَهَا مِنَ اللَّهِ طَالِبًا[2])).

ومما يدل على ما قررناه -من كون الخطر المخوف مع حصول العلم والعمل والإخلاص هو ما ذكرناه- قوله صلى الله عليه وآله وسلم: ((حراسة العمل أشد من العمل))، وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: ((لو صليتم حتى تكونوا كالحنايا[3]، وصمتم حتى تكونوا

---

(١)- مُحَقَّرَات الذنوب بتشديد القاف وفتحها: التي يحتقرها فاعلها.

(٢)- الإمام المرشد بالله -عليه السلام- في الخميسية روى صدره. وأخرجه ابن راهويه في مسنده [٢/ ٥٣٨] رقم (١١٢٠)، وأحمد في مسنده [٤٠/ ٤٧٧] رقم (٢٤٤١٥).

(٣)- الحنايا: جمع حَنْيٍ وهو القوس، أي: حتى تكونوا محنيين، أي معطوفين كالقسي أو الأقواس، من كثرة الوقوف في الصلاة.

كالأوتار[(١)]، وتوفيتم بين الركن والمقام، ما نفعكم ذلك؛ إلا بالورع[(٢)])، ((ألا وإن الدين الورع، ألا وإن الدين الورع، ألا وإن الدين الورع)).

وأنفع أسباب الورع: استشعار الخوف؛ فإن ((من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل)).

فمقتضى الخوف: عدم الغفلة عن قصر المدة وقرب الرحلة؛ وإنما جعل ﷺ الخطر عظيما بقوله: ((والمخلصون على خطرٍ عظيم)) لكثرة الدواعي إلى المعاصي، وسعة الآمرين بها، والداعين إليها من: شياطين الإنس، والجن، والشهوات، والنفس فإنها الأمَّارة بالسوء بنص القرآن، وهي قاهرة للإنسان، وآخذة بالناصية في منهج العصيان.

قال بعض الواعظين: يا مقهورا بغلبة النفس، صُلْ عليها بطول العزيمة، فإنها إن عرفتْ جدك استأسرت لك، وامنعها عن لذيذ المباح، لتصطلحا على ترك الحرام. الشيطان والدنيا عدوان بائنان عنك، والنفس عدو مباطن لك، ومن آداب

---

(١)- الأوتار: جمع وتر، وهو ما يشد به القوس لرمي النبل، والمراد: حتى يؤثِّر فيكم الصوم بالضعف والهزال حتى تكونوا أشبه بأوتار القسي في نحافتها ودقتها.

(٢)- السمرقندي في تنبيه الغافلين عن أحاديث سيد الأنبياء والمرسلين [١/ ٤٧٣] رقم (٧٣٦) مرفوعا، والغزالي في الإحياء [٢/ ٩١] عن ابن عمر موقوفا.

القتال: ﴿قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ﴾ [التوبة١٢٣].

ولله در بعض الحكماء في قوله: لتكن طاعتك لله بقدر حاجتك إليه، وجرأتك على المعاصي بقدر صبرك على النار، اللهم أجرنا منها يا خير مستجار.

وقد تم ما أردته من جمع هذا المختصر، وفيه كفاية لمن اعتبر وحقق النظر.

ولعل من يقف عليه وينظر إليه يقول: لم يعتنِ مؤلفه بجمعه، ويصرف عنايته إلى وضعه، إلا وهو من رجال هذا الشأن، وفرسان ذلك الميدان، فإنه لا يتصدى لوضع كتب علم المعاملة الصالحة إلا سالك تلك الطريقة الواضحة، وأعوذ بالله من التلبيس على عباد الله، فإنه لا علم ولا عمل، ولا ناقة لي في هذا المنهج ولا جمل؛ وإنما رجوت أن يقودني الأخذ من هذا المعنى بنصيب إلى التوبة عن قريب، ورأي في أمر ديني مصيب، وإن لم يتداركني الله بلطفه وواسع عطفه هلكت لا محالة، ولم أنجُ من ورطة الضلالة.

اللهم إن مغفرتك أوسع من ذنوبي، ورحمتك أرجى لي من عملي، فخذ إلى الخير بناصيتي، وأحسن اللهم عاقبتي وخاتمتي.

ومن نظر في هذا المجموع المختصر مسئول أن يدعو لجامعه في حياته بالتوفيق، وبعد مماته بالنجاة من عذاب الحريق،

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وتعم البركات، وصلاته وسلامه على سيدنا محمد الأمين، وعترته الطاهرين، وصحابته الراشدين، إلى يوم الدين.

قال مؤلفه: وكان الفراغ من تأليف هذا المختصر ضحى يوم الأربعاء لإحدى عشرة ليلة بقيت من ذي القعدة سنة (٨٧٨) ثمان وسبعين وثمانمائة بمنزل مؤلفه تجاه المسجد الجامع المشهور المبارك بأعلى فلّة لعزّ الدين بن الحسن عفا الله عنه وغفر له.



المحتويات